النسخة الحادية والعشرون
مزيدة ومعدلة

كريم امصنصف

التجارة الرابحة في عصر فساد البلاد وخسر العباد

تفسير موضوعي لسورة العصر وآية ظهور الفساد في سورة الروم

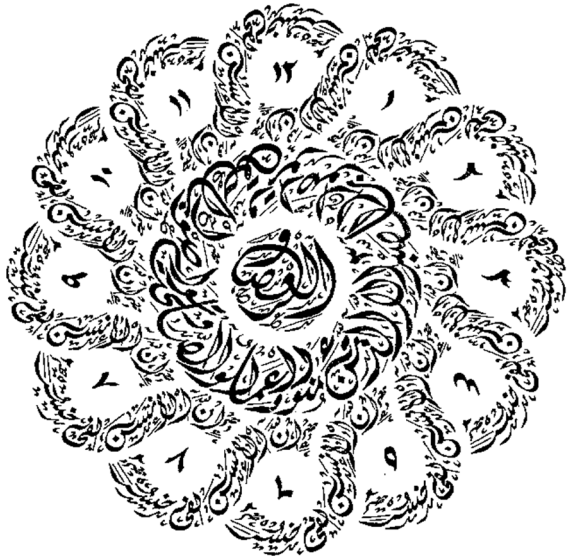

KIM

التجارة الرابحة في عصر فساد البلاد وخسر العباد ● كريم امصنصف ● كريمكناس 79 ناشرون KIM

التجارة الرابحة في عصر فساد البلاد وخسر العباد

تفسير موضوعي لسورة العصر وآية ظهور الفساد في سورة الروم

هذا الكتاب: تفسير موضوعي تحليلي مقارن جامع بين المأثور والمعقول مستمد من أوثق كتب التفسير، جامع لصفوة زبدة عيون الأقوال لمشاهير المفسرين مع الترجيح .

التعريف بالمؤلف

- أذ. كريم امصنصف: مغربي من مواليد 1979 م بمكناس.
- باحث شرعي مستقل، رقم معرف الباحث: arid.my/0001-7902
- عضو باحث بمنصة وأكاديمية إيفاد العلمية (IFAD).
- عضو بملتقى أهل التفسير.
- مدرس علوم القرآن والتفسير بالتعليم العتيق.
- مدرب معتمد بالأكاديمية العربية الدولية للتعليم العالي (سابقا).
- مجاز في الدراسات الإسلامية من جامعة مولاي إسماعيل بالمغرب، 2004 م.
- حاصل على دبلوم القرآن وعلومه من أكاديمية البلدة الطيبة باليمن، 2022 م.
- حاصل على دبلوم متوسط في الدراسات القرآنية من أكاديمية تفسير، 2022 م.
- حاصل على العديد من الشهادات التكوينية في مساقات التفسير وعلوم القرآن منها:
  - أسس البحث العلمي في القرآن الكريم من منصة إيفاد (IFAD) العلمية للباحثين والأكاديميين (2023).
  - مدخل إلى علوم القرآن وأصول التفسير من منصة رواق (2023).
  - أساسيات علوم القرآن من منصة زادي للتعلم الشرعي (2021).
  - قواعد التفسير تأصيل وتطبيق من منصة زادي للتعلم الشرعي (2020).
  - مقدمات في علوم القرآن من منصة زادي للتعلم الشرعي (2018).
  - تفسير القرآن الكريم من مركز تفسير للدراسات القرآنية عبر منصة زادي للتعلم الشرعية (2016-2018).
- حاصل على وسام ناشر متميز من أريد العلمية (2018)، ومن مؤلفاته في التفسير:
  - سورة الفاتحة (تفسير موضوعي في ضوء عبادة الدعاء).
  - بيان آلاء أولياء الرحمن في الجنان (تفسير تحليلي لخواتيم سورة الرحمن).

كريمكناس 79 ناشرون
الخاصة والمحدودة للنشر الإلكتروني الحر
karimeknes79.editeurs@gmail.com
karimeknes79editeurs@yahoo.com

كتبنا للملايين بلا ملاليم

EBIN: 1-71-21-240209

karimeknes 79

النسخة الحادية والعشرون

التجارة الرابحة في عصر فساد البلاد وخسر العباد

تفسير موضوعي لسورة العصر وآية ظهور الفساد في سورة الروم

"سورة العصر صورة للعصر"

تأليف:

كريم امْصَنْصَفْ

كريمكناس 9 7 ناشرون

karimeknes79.editeurs@gmail.com
karimeknes79editeurs@yahoo.com

عنوان الكتاب: **التجارة الرابحة في عصر فساد البلاد وخسر العباد**

العنوان الفرعي: **تفسير موضوعي لسورة العصر وآية ظهور الفساد في سورة الروم**

التصنيف: **علوم القرآن والتفسير**

المؤلف: **كريم امصنصف**

التدقيق اللغوي: **أناغيم الحمد – آسية خميس – عائشة رمضان – نشوة سمير علي سليمان**

الناشر: **كريمكناس79 ناشرون الخاصة والمحدودة للنشر الإلكتروني الحر للدراسات الإسلامية**

النسخة الحادية والعشرون 2024 م (نسخة خاصة مصححة ومنقحة ومزيدة ومعدلة)

عدد الصفحات: **200 ص، 14x21 سم.**

إبين: 1-71-21-240208

BY NC ND

بعض الحقوق محفوظة بموجب رخصة المشاع الإبداعي العمومية الدولية (CC BY NC ND 4.0) للاستخدام غير التجاري، تسمح بالمشاركة بأي وسيلة أو تنسيق (نسخ وتوزيع ونقل العمل لأي وسيط أو شكل)، دون تعديل (المزج-التحويل-الإضافة على العمل)، مع نسبة المصنف للمؤلف (بطريقة مناسبة، وتوفير رابط للترخيص، وبيان إذا ما قد أجريت أي تعديلات على العمل).

EBIN: 1-71-21-240209

eP-eB / v.1: 2022.01.11

كريمكناس79 ناشرون

عنوان البريد الإلكتروني: **karimeknes79.editeurs@gmail.com**

karimeknes79editeurs@yahoo.com

الموقع الإلكتروني: **https://sites.google.com/view/karimeknes79-editeurs**

https://karimeknes79editeurs.webnode.fr

صفحتنا على الفيسبوك: **https://www.facebook.com/karimeknes79editeurs**

قراءة ماتعة نافعة

منهج المفسر

هذا التفسير الذي بين يديك هو خلاصة لقراءات عديدة في مختلف أمهات كتب التفسير التراثية سواءً القديمة أو الحديثة، ومن خلاله يتضح للقارئ وضوحا كبيرا مدى استيعابه لأفكار مفسري المشرق والمغرب، مما يظهر التنوع والانفتاح في منهج المفسر على مختلف الاتجاهات الفكرية والمدارس التي تعنى بتفسير القرآن، سواءً كانت تلك التي تتبنى النهج السني أو الشيعي أو الصوفي، وسواءً كانت تفاسير شهيرة أو مغمورة.

لقد امتلأت كتب التفسير بنقل أقوال وآراء متنوعة تارة ومتباينة تارة أخرى، وقد بذل المفسرون جهودًا كبيرة في عرض وتوجيه هذه الآراء في كتبهم، ولكن المفسر استطاع التعامل مع هذا التنوع بشكل يحقق التوازن بين مختلف الآراء، وتبني نظرة موضوعية عند التحكيم بينها في حالة الاختلاف، وتوضيح الآراء عند الانشغال بالمواضيع المعقدة. كم قام بتوثيق ونقد الروايات، ورفض الروايات الضعيفة والموضوعة، مع تجنب الإسرائيليات والابتعاد عن بدع التفاسير.

ومن الملفت للنظر أن المفسر اعتمد منهجية بحثية متكاملة تجمع بين المنهج التوثيقي والمنهج التحليلي. حيث قام بجمع المواد التفسيرية من مصادر متعددة وأعاد تركيبها بشكل متناغم، مع التركيز على التفكيك والتحليل للمواد التي تم نقلها من المفسرين الآخرين.

ويتسم تفسيره بالاتجاه الإصلاحي، حيث يرتبط بالدعوة إلى الإصلاح الاجتماعي، ويركز على ضرورة الالتزام بالقرآن في توجيه السلوك الاجتماعي للمسلمين في العصر الحديث. ويحاول الربط بين القرآن والواقع، مما يجعل تفسيره ذا صلة بالتحديات والوقائع المعاصرة.

ومن الناحية السلبية يمكن القول أن المفسر، قد أطال البيان فجاء تفسيره مفصلا جدا، مما قد يجعله أكثر مناسبة للمتخصصين في مجال التفسير وذوي الثقافة الشرعية، وقد يكون أقل فائدة للعامة.

ومع ذلك فإن المفسر في رأينا المتواضع هو أولى من الإمام محمد عبده بقوله في هامش تفسيره لسورة العصر بجزء (عم): "وقد كتبنا تفسيرا لهذه السورة الشريفة نشر وحده ... وفيه تفصيل طويل لما أجملناه في التفسير المختصر، فمن أراد بيانا أوسع وتفصيلا أبدع فليطلب ذلك التفسير، فهو – فيما أعلم– غير مسبوق بنظير"[1].

الناشر

***

[1] الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده: 481/5، الهامش رقم: 1.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

الحمد لله والصلاة والسلام على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وأما بعد: إن الشريعة الإسلامية جاءت لعمارة الدنيا ولتحقيق الحياة الفاضلة الطيبة، ولذلك حرم الإسلام جميع صور الفساد لأن الفساد من الأمراض التي أرهقت الشعوب، وهو السبب الرئيس في هلاك الأمم، وقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم تذكر الظلم سببًا من أسباب الفساد وهلاك الأمم السالفة، والظلم لفظ عام في وضع الشيء في غير موضعه، وهو يشمل الشرك وغيره من المعاصي إلا أن الشرك أعلى أصناف الظلم ولا ظلم أعظم منه.

وقد وردت كلمة الفساد ومشتقاتها خمسين (50) مرة في القرآن الكريم، والصيغ التي وردت هي: الفعل الماضي، ورد أربع (4) مرات، والفعل المضارع، ورد أربع عشرة (14) مرة، والمصدر، ورد إحدى عشرة (11) مرة، واسم الفاعل، ورد إحدى وعشرين (21) مرة، وفي معظم الآيات ارتبط مصطلح الفساد بكلمة الأرض، فقد ورد الفساد بمعنى الكفر واختلال العلاقة

مع الله ﷻ في عشرة (10) آيات فقط، بينما الفساد في الأرض ورد في أربعين (40) آية من الخمسين، فالقرآن توسع في تعريف الفساد بحيث لا يقف عند حدود المعاصي الدينية وانحراف العقيدة –رغم أنه اعتبر هذا النوع من الفساد هو أساس كل فساد–، وإنما شمل معناه الفساد العقائدي، والأخلاقي، والسلوكي، والأمني، والاجتماعي، والاقتصادي، والحيوي، والبيئي، والعمراني، والإعلامي، والتعليمي، والتربوي... إلخ.

لقد شاع التعامل بالربا الذي يتسبب كل فترة بأزمات اقتصادية عالمية مدمرة، وكذلك تجارة الأسلحة المدمرة التي تثير الفتن والحروب، والقتل، وأيضا انتشار السحر والشعوذة، والفساد الأخلاقي بأفلام الجنس، وقنوات روتيني اليومي على اليوتيوب، والمجاهرة بالشذوذ الجنسي مما تسبب في انتشار الإيدز وغيره، فقد ملأ الفساد البر والبحر بالأنشطة الفاسدة للناس، وقد بدأت آثار ذلك تظهر على الإنتاج والبيئة البرية والبحرية، وبدأت الأجناس الحية تموت ويختل الاتزان الحيوي، وظهرت الأمراض الفتاكة على الإنسان والحيوان جراء هذا الفساد آخرها (كوفيد–19).

وإن علاج أي مرض يتوقف أساسا على معرفة أسبابه واستئصالها، لذا وقع القصر على سورة العصر لحل مشكلات العصر مع تفسير آية الفساد في سورة الروم في عصر ظهر فيه الفساد في البر والبحر، للوقوف على أسبابه وانعكاساته على البلاد والعباد، والسبيل إلى الخلاص منه، وهو

تفسير جامع بين المأثور والمعقول مستمد من أوثق كتب التفسير إذ عملت على جمع وترتيب المادة العلمية من مظانها الأصيلة، وبذلك لم أكن مبتدعا لقول وإنما جماعا متبعا لخير السلف مع مراعاة التحقيق والتنقيح على ما أقف عليه من نقول. فجاء هذا التفسير مبسوطا مبسطا، ميسرا ومقربا الأقوال للأفهام، فكان بحق هذا الكتاب المعنون بـ: (التجارة الرابحة في عصر فساد البلاد وخسر العباد) موسوعة تفسيرية لسورة العصر وآية ظهور الفساد في سورة الروم، يغنيك عن غيره من التفاسير ولا تغنيك مجتمعة عنه. وبهذا لم يكن عملنا بدعا عن مقاصد التأليف السبعة التي نظمها بعضهم قائلا:

ألا فاعلمن أن التأليف سبعة *** لكل لبيب في النصيحة خالص
فشرح لإغلاق وتصحيح مخطئ *** وإبداع حبر مقدم غير ناكص
وترتيب منثور وجمع مفرق *** وتقصير تطويل وتتميم ناقص

فإن أصبت فبتوفيق من الله، وإن أخطأت فمني ومن الشيطان.

قال الإمام النووي رحمه الله:
أموت ويبقى كل ما كتبته *** فياليت من يقرأ كتابي دعا ليا
لعل إلهي أن يمن بلطفه *** ويرحم تقصيري وسوء فعاليا

بقلم: أذ. كريم امصنصف
حرر بمكناس العاصمة الإسماعيلية
في: 2022/01/11 م

تمهيد

قال العلامة الفراهي في تفسيره: "ليس من التكلف اعتناؤنا في تفسير القصار [من السور] بتبيين سعة معناه"[1]، وفي هذا السياق يقول أد. محمد أمين أبو شهبة: "إن هذا الاتساع في الدلالات والوفرة في التأويلات يثير النفس ويفتح للعقل بابا للتدبر والتأمل في كتاب الله، تقرأ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ فيدفعك اللفظ بعمومه إلى معرفة صفاته التي ذكرها الله في كتابه، ولماذا وقع الإنسان فريسة للخسر؟ ثم تقرأ: ﴿لَفِى خُسْرٍ﴾ فتجدك مدفوعا إلى معرفة هذا الخسر المُنْكَر في السورة ما هو؟ وما سببه؟ وما أنواعه؟ وكيف أنجو منه؟ فتجد السورة تعطيك بمنطوقها أسباب النجاة، وبمفهومها أعظم أسباب الخسارة: الكفر، وعمل السيئات، والتواصي بالباطل والجزع، وتفتح لك الباب لمعرفة المزيد من كتاب الله، حتى يجيب عن كل سؤال جال بخاطرك، أو لم يجل.

وهكذا الحال مع سائر ألفاظ السورة: (ءَامَنُواْ – ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ – ٱلْحَقِّ – ٱلصَّبْرِ)"[2].

***

[1] تفسير نظم القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان: لعبد الحميد الفراهي، ص: 392.

[2] سورة العصر دراسة في المناسبات والسمات: د. محمد أمين أبو شهبة، أستاذ بقسم البلاغة والنقد في كلية اللغة بإيتاي البارود، ص: 6410.

تفسير سورة العصر

﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ ۝٣﴾ [العصر: 1-3].

- **التعريف بالسورة**[1]

التسمية: ليس لسورة العصر أسماء عدة كغيرها من سور القرآن الكريم فلها أسماء ثلاثة بنحو متقارب: الأول: سورة العصر؛ ويرجع تسميتها به لورود هذه الكلمة في السورة، وهو الاسم الأشهر، السائد، المثبت في مصاحف كثيرة، ومعظم كتب التفسير، وقد جاءت هذه التسمية في كلام الصحابة ﷺ[2]. والثاني: سورة والعصر، بإثبات الواو؛ وقد سميت بهذا الاسم؛ لافتتاحها به، وهي التسمية المشهورة في القرون الأولى، بتسمية

---

[1] لقد "اختلفت عبارات المفسرين الذين يُعنون عادة بمثل هذا الفصل [بين يدي السورة]، وبعضهم يغلب عليه التكلف، كالبقاعي في مصاعد النظر (246/3)، ونظم الدرر (234/22): فإنه عند تقرير مقصود هذه السورة ذكر أنها دلت على تفضيل نوع الإنسان [المخلوق من علق] على باقي المخلوقات، وهذا غير واضح، بل العجب منه كيف يستدل بسورة تقرر أن هذا الإنسان غارق في الخسران على تفضيله" (تفسير سورة العصر: للدكتور أبي مجاهد، أستاذ مشارك بكلية القرآن الكريم بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، ص: 16).

[2] سيأتي ذكر ذلك في حديث أبي مدينة، انظر ص: 104.

السورة بمطلعها، ونجده في بعض كتب التفسير وفي صحيح البخاري، والثالث: السورة التي يذكر فيها العصر؛ وهي: طريقة معروفة في التراث التفسيري، بتسمية السورة بذكر أبرز ما فيها.[1]

فالتسمية باسم العصر يدل بإشارة تقرب من التصريح إلى أهمية الزمن في الملحظ القرآني... وهو الإعلام بقيمة الزمن كي لا نضيعه ولا

[1] قارن بـ: في رحاب تفسير سورة العصر: للحفناوي، ص: 789-790. ويذكر بعض المفسرين في ربط [دلالة] اسم السورة بمضمونها [ومقصودها] أنه جعل القَسم بالعصر وهو العشي اسما للسورة ليدل على قصر مدة عيش الإنسان في الحياة الدنيا، لدعوته على تدارك ما بقي من عمره ليؤمن ويعمل صالحا، وإلا كان من الخاسرين، وهو أنسب وقت يقسم به لهذا السياق لأنه الوقت الفاصل بين آخر النهار وأول الليل، وكأنه يعلن عن انتهاء حياة ويؤذن ببدء أخرى، فالدنيا في إدبار والآخرة في إقبال، ليحث الإنسان على الثوبة عما سبق فيما تبق من النهار، وكما ابتدأت السورة بالقسم بالعصر للدلالة على قصر حياة الإنسان أُخْتُتِمَت ببيان أن من قواعد المنهج الرباني لتحقيق الربح التواصي بالحق والتواصي بالصبر، وكأن أحدهم لا يدري متى ينتقل من هذه الحياة القصيرة، فيوصي إخوانه بالتمسك بالحق والصبر عليه ليتحقق لهم الربح جميعا يوم القيامة، وفي هذا حسن البدء والختم. (قارن بـ: دلالة أسماء السور القرآنية: على محاورها وموضوعاتها مع خرائط ذهنية للسور القرآنية تعين على فهم السورة وحفظها، لعمر علي حسان عرفان، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق- سوريا، ط/1- 2018، ص: 760-762).

نسرف فيه[1].

مكان النزول: وقد اختلف في مكان نزولها، فذكرت بعض الروايات عن مجاهد وقتادة ومقاتل وإحدى الروايتين عن ابن عباس أنها مدنية، غير أن أسلوبها –لحنها ومقاطعها القصيرة– يدل على مكيتها[2] وهو الراجح، وهو ما عليه ابن عباس وابن الزبير وجمهور المفسرين، وذكر إبراهيم البقاعي في (مصاعد النظر) الإجماع على ذلك، ولم يذكرها السيوطي صاحب (الإتقان) في عِداد السور المختلف فيها. وعُدَّت الثالثة عشرة في عِداد نزول السور، فقد نزلت بعد سورة الانشراح وقبل سورة العاديات.

والسورة محكمة لا نسخ فيها على الصحيح[3].

---

[1] دلالة أسماء سور القرآن الكريم من منظور حضاري: د. محمد خليل جيجك، ص: 276–277، بتصرف.

[2] قارن بـ: في رحاب تفسير سورة العصر: للحفناوي، ص: 791.

[3] انظر: تفسير التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، وقارن بتفسير: زاد المسير: لابن الجوزي. (قلت): وسورة العصر جميعها محكم، ونقل اختلاف المفسرين فيها ابن حزم الأندلسي في (الناسخ والمنسوخ)، ومرعي الكرمي المقدسي في (قلائد المرجان)، إذ قال الأكثرون ليس فيها منسوخ، وزعم البعض ومنهم ابن سلام المقري في (الناسخ والمنسوخ) أن المنسوخ فيها آية واحدة وهي قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾، منسوخة بالاستثناء الوارد في الآية التي تليها مباشرة وَهُوَ قَوْله ﷻ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾، وهذا الزعم باطل، وخلط بين النسخ والتخصيص، وَفِيه مَا =

سبب نزولها: سورة العصر مما نزل ابتداء دون سبب نزول ولم يرد نص صريح صحيح يعتد به كسبب نزول لها، ولا لبعض آياتها[1].

فضائلها: وفضلها ورد فيه أَحاديث منكَرة تركناها لذلك؛ إذ لم يرد نص ثابت مرفوع في فضائلها خاصة، سوى أنها من المفصل الذي فضل به النبي ﷺ على سائر الأنبياء عليهم السلام[2]، وقال النووي في رياض الصالحين:

= فِيهِ؛ إذ يقول ابن حزم: "النسخ إنما يقع في الأمر والنهي ولا يجوز أن يقع في الأخبار المحضة، والاستثناء ليس بنسخ... وسمى بعضهم الاستثناء والتخصيص نسخا، والفقهاء على خلاف ذلك". وأشار السيوطي في كتابه الإتقان في علوم القرآن (النوع: السابع والأربعون) إلى نحو ذلك بقوله: "وقسم هو من قسم المخصوص لا من قسم المنسوخ.. كقوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾".

[1] قارن بتفسير سورة العصر: لأبي عبيدة، ص: 17. وقال الحفناوي: "غير أنه قد رُبِط بوجه بين سورة العصر، وواقعة عمر بن العاص مع مسيلمة الكذاب...، ومعلوم بين أن مثل هذه المرويات لا علاقة بينها وبين أسباب النزول، وإنما سيقت ارتباطا بوجه ما كواقعة عاصرت الأيام الأولى للسورة الكريمة" (في رحاب تفسير سورة العصر، ص: 795-796، بتصرف بسيط)، وسيأتي ذكر الواقعة بالتفصيل في ص: 126.

[2] عن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: «أُعطيت مكان التوراة السبع الطوال ومكان الزبور المائين ومكان الإنجيل المثاني وفضلت بالمفصل»، الحديث حسن -لكثرة شواهده- كما ذكر محققو مسند أحمد، وقال الألباني في السلسلة الصحيحة: الحديث بمجموع طرقه صحيح، والحديث أخرجه: ابن جرير الطبري، وابن كثير، والثعلبي، كل في تفسيره، جميعهم من طريق قَتَادة عن أبي المليح به. والمفصل هي السور القصيرة =

"قال الإمام الشافعي كلاما معناه: إن الناس –أو أكثرهم– في غفلة عن تدبر هذه السورة"، ولفظه عند ابن كثير قال الشافعي: "لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم"، وعند ابن قيم الجوزية بلفظ آخر قال الشافعي: "لو فكر الناس كلهم في هذه السورة لكفتهم"[1].

"يعني: كفتهم موعظة وحثًا على التمسك بالإيمان والعمل الصالح، والدعوة إلى الله، والصبر على ذلك. وليس مراده أن هذه السورة كافية للخلق في جميع الشريعة، لكن كفتهم موعظة"[2].

= وسميت كذلك لكثرة الفصل بينها ببسم الله الرحمن الرحيم. وهناك أحاديث فيها بعض الخلاف في تعيين سور كل مجموعة من مجموعات السور الأربع، والمفصل يبدأ في رواية للبخاري بالجاثية. وهناك قول إنه يبدأ بالصافات، وقول إنه يبدأ بسورة (ق)، وقول إنه يبدأ بالحجرات، وقول إنه يبدأ بتبارك، وقول إنه يبدأ بالفتح، وقول إنه يبدأ بالضحى.

[1] انظر: رياض الصالحين: للنووي، باب في التعاون على البر والتقوى، ص: 122، وتفسير ابن كثير: 515/4، ومفتاح السعادة: لابن القيم: 90/1. (قلت): وهذه المقولة لا يوجد لها أثر في مصنفات الشافعي وينسبها العلماء له في مؤلفاتهم بعبارة متقاربة وإن اختلفوا في اللفظ فقد اتفقوا على المعنى، فهي من قبيل المتواتر المعنوي. وقارن برواية ابن قيم الجوزية: "لو فكر الناس كلهم فيها لكفتهم" (التبيان، الفصل: السادس عشر، ص: 54)، وفي رواية أخرى: "لو فكر الناس في سورة ﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾ لكفتهم" (إغاثة اللهفان، ص: 45)، وفي رواية محمد بن عبد الوهاب بلفظ: "لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم" (الأصول الثلاثة، ص: 3).

[2] تفسير القرآن الكريم (جزء عم: سورة العصر): للعثيمين.

"وفي قول الشافعي إشارة إلى شمولية السورة رغم قصرها، وهذا بيان لبعض وجوه تلك الشمولية:

1- الشروط الأربعة للنجاة -مثل الجهات الأربع- محيطة بالإنسان، فما من ملكة في الإنسان إلا وقد دخلت في وطيس الاختبار:

فـ: (الإيمان) اختبار للقلب، و(العمل) اختبار للجسد، و(الحق) اختبار للعقل، و(الصبر) اختبار للنفس[1].

---

[1] وقارن بقول المفسر ولي الدين الملوي: "قال الإمام فخر الدين [الرازي] في تفسيرها [أي سورة العصر] المفرد ما معناه: (إن جميع ما تعب في تحبيره العلماء، واجتهد في تحريره الحكماء، فإنه لم يتجاوز الأسرار التي اشتملت عليها هذه السورة، ولا توصف عظمته وجلالة موقعه، إلا بأن يقال ما لخصه الإمام الشافعي ﷺ)؛ إذ قال: (لو لم ينزل على الناس إلا سورة العصر لكفتهم)، وفي لفظ: (لو أخذ الناس بسورة العصر لكفتهم). (...) وإنها اشتملت على فصلين: أولهما: بيان أسباب الخسر المهلكات، والثاني: بيان أسباب الربح المنجيات. ثمَّ لَمَّا تَكَثَّرتْ أسبابُ الخُسْر والهَلاكِ تَكَثُّرًا يَفُوت الحَصْرَ، قيل: إنَّ الإنسان لَفِي خُسْر، أي: كُلّ إنسان، وإن عَمِلَ ما عَمِل، وهذا شُمولٌ يُناسِب ما لا حصر له. ولَمَّا انحصرتِ المُنجياتُ في المُجْتَلَب والمُجْتَنب، بُيِنَتْ المُنجياتُ الاجتلابيَّة قَلبيَّةً بـ ﴿آمَنُوا﴾، وقَالَبيَّةً إسلاميَّة بـ ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، وروحانيَّةً إحسانيَّةً بـ ﴿وَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾، ثمَّ بُيِنَتْ المُنجياتُ الاجتنابيَّةُ. تَنَزُّهًا عمَّا لا ينبغي ممَّا عُلِمَ أنَّه خُسْر. بالتَّواصِي بالصَّبر، والحمد لله وَحْدَه". تفسير سورة العصر المتضمنة هداية سبيل الرشاد في أقصر الآماد: لابن المنفلوطي خطيب مَلّوِي، ص: 28، 38، 39، بتصرف بسيط.

2- الشروط واقعة على كل المجالات:

المجال الباطني والظاهري، والمجال العلمي والعملي، والمجال الفردي والجماعي.

تتحقق الشمولية أيضا في استيعاب السورة للوضع الإنساني العام:

فهي تجيب على السؤالين الجذريين: الوجودي والخلقي.

السؤال الأول: ما وضع الإنسان؟

الجواب: إن الإنسان لفي خسر.

السؤال الثاني: ما السلوك الذي ينبغي أن يصدر عنهم في هذه الحال؟

الجواب: يؤمنون ويعملون صالحا ويتواصون بالحق ويتواصون بالصبر.

فإذا أدرك الإنسان وضعه، وعلم ما يتعين عليه فعله، فقد أحاط إجمالا بكل شيء يتعلق به.

ولعل هذا المعنى هو الذي خطر ببال الشافعي عندما قال: (لو تدبر

الناس هذه السورة لوسعتهم)"[1].

مناسبتها: ومناسبتها[2] لما قبلها أنه لما بين ﷻ في سورة التكاثر حال من اشتغل بأمور الدنيا –والتهالك عليها مذموم–: بالتفاخر، والتكاثر، وبكل ما من شأنه أن يلهي عن طاعة الله، ذكر هنا أن طبيعة الإنسان داعية له إلى البوار، وموقعة له في الدمار إلا من عصم الله وأزال عنه شر نفسه، فكأن هذا تعليل لما سبق إلى أنه ذكر في السالفة صفة من اتبع نفسه وهواه، وجرى مع شيطانه حتى وقع في التهلكة، ويبين في هذه السورة ما يجب الاشتغال به من الإيمان بالله والأعمال الصالحات وكف النفس عن المناهي، والتواصي مع الإخوان على الاستمساك بِعُرى الحق، والاصطبار على

---

[1] مقال: تفسير بياني لسورة العصر: لأبي عبد المعز، منشور في: 2013/05/13 – 2014/09/20، بملتقى أهل التفسير، بتصرف.

[2] قارن بتفسير: المراغي، وتفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان: للنيسابوري. (قلت): ويرى الفراهي أن للسورة تأويلان: عام وسِيع، وخاص. وقال: "فنفسرها حسب التأويل الخاص الذي له زيادة مناسبة بالسورة السابقة [أي التكاثر]... فاعلم أنه قد مر في السورة السابقة أن أهل النعم انهمكوا في طلب المال، فأفنوا فيه أعمارهم، وهذا هو الخسران العظيم، وفي أول سورة (والعصر) بين خسران هؤلاء واضحًا. ثم بين طريق الفلاح واقتناء الفوز العظيم والحظ الكامل من هذا العمر المستودع، لكي يتنافسوا فيما هو أحق به وينتبهوا عن نوم اللهو والغفلة قبل الفوت والحسرة" (تفسير نظم القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص: 381–382، بتصرف بسيط).

مكارهه، وفيه إشارة إلى طريق النجاة[1].

كما أن هناك مناسبة بين مطلع سورة البقرة وسورة العصر؛ "فالآيات الأولى من سورة البقرة تتحدث عن المفلحين، وسورة العصر تتحدث عن المفلحين ولكن بتفصيل جديد؛ إذ تبدأ بالقسم على أن جنس الإنسان في خسر إلا من اتصف بصفات أربع: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، فهي تفصيل للتقوى ولأخلاق المتقين الذي وصفهم الله ﷻ بالفلاح... [في الآيات] الخمس الأولى من مقدمة سورة البقرة، لكنه تفصيل جديد فيه تحديد وفيه بيان"[2].

موضوعها ومقاصدها: وهذه السورة من أجلِّ سور القرآن العظيمِ

---

[1] وَقِيلَ: غَيْرُ هَذَا مِمَّا هُوَ مُجَرَّدُ بَيَانِ مُنَاسَبَةٍ لَيْسَ فِيهَا كَثِيرُ فَائِدَةٍ تَتَعَلَّقُ بِالتَّفْسِيرِ. فذكر ابن المنفلوطي خطيب مَلّوِي في تفسيره لسورة العصر معان حسنة لطيفة في المناسبة بين سورتي العصر والتكاثر، كما أن د. محمد أمين أبو شهبة في بحثه الموسوم بسورة العصر دراسة في المناسبات والسمات، يعد أكثر من توسع في ذكر المناسبات بين سورة العصر وباقي سور القرآن على الإطلاق على حد علمنا، والله أعلم.

[2] الأساس في التفسير: لسعيد حوى: 6668/11. وقارن بسورة العصر دراسة في المناسبات والسمات: لمحمد أمين أبو شهبة، ص: 6386. وللمزيد حول تفسير مطلع سورة البقرة ارجع إلى كتابنا: (نظرات جديدة في تفسير سورة الفاتحة في ضوء عبادة الدعاء).

وأوجزها لفظًا[1] وأكثرها معنًى وحكمة وبيانًا، ففي هذه السورة ذات الآيات الثلاث تِبيان لحقيقة الربح والخسارة في الحياة، وتنبيه على أهمية الوقت الذي يعيشه الإنسان، ويتمثل فيها منهج كامل للحياة البشرية كما يريدها الإسلام[2].

وهو منهج ذو أربعة أصول: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر، وهذه الأصول الأربعة هي في الواقع المنهج العقائدي والعملي الفردي والاجتماعي للإسلام[3].

بلاغتها: "جاءت آيات سورة العصر متناسقة حيث عطف فيها الفعل الماضي على الماضي، واشتملت الآيات على السجع، حيث ختم كلا منها بالراء المكسورة، بل فيها أيضا لزوم ما لا يلزم حيث جعل قبل الراء في كل آية، حرفا ساكنا، كل هذا يدخل في بديع الكلام واتساقه وحسن تناوله، فيسرى في النفس مسرى النسمة الرقيقة بعد الحرارة اللافحة، فالوعيد القارع أعقبه

---

[1] "سورة العصر أقصر سورة في القرآن (باعتبار البنية التركيبية)؛ لا تشتمل إلا على جملة واحدة مسورة بقسم، ومذيلة باستثناء" (تفسير بياني لسورة العصر: لأبي عبد المعز بتصرف). وهذا الإيجاز غير المخل في سورة العصر من إعجاز البلاغة القرآنية في البيان والتي من سماتها القصد في اللفظ مع الوفاء بحق المعنى.

[2] قارن بتفسير في ظلال القرآن: لسيد قطب، وتفسير حدائق الروح والريحان: للهرري.

[3] الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل: لناصر مكارم الشيرازي (الشيعي): 401/15.

بالثواب الوافر، ومن أحسن السجع ما جاء في هذه السورة، لأن الآية الأولى قصيرة، ثم طالت الثانية، وازدادت الثالثة طولا؛ لأن السجع إذا استوفى أمده من الأولى، ثم جاءت الثانية دونها صارت كالشيء المبتور".

- **المعنى الإجمالي**

في سورة العصر أقسم الله ﷻ بالزمان؛ لكثرة ما انطوى عليه من عِبَر، ولما فيه من عجائب قدرة الله الدالة على عظمته، على أن كل إنسان لفي نوع من الخسران؛ لما يغلب عليه من الأهواء والشهوات فهو في نقص وهلاك. إلا الذين آمنوا بالله وبرسله، وعملوا الأعمال الصالحات، وأقاموا على الطاعات، وأوصى بعضهم بعضا بالتمسك بالحق اعتقادا وقولا وعملا، وأوصى بعضهم بعضا بالصبر على المشاق التي تعترض من يعتصم بالدين، فهؤلاء المتصفون بهذه الصفات ناجون من الخسران في حياتهم، مفلحون في الدنيا والآخرة.

* * *

(توطئة)

قبل الخوض في التفسير التفصيلي لسورة العصر لا بد من تقديم فصلين.

- **الفصل الأول: بلاغة أسلوب القسم في السورة**

"وأصله [أي القسم] القَسْم بسكون السين. مصدر قسمت الشيء فانقسم، أي فرقته وميزت بعضه من بعض، وإليه يرجع القُسَام، وهو الحسن،... ولما كانت اليمين مميزة لما أكد بها عن المكذوب والمظنون والمحتمل، سميت قسما، لأنها قسمت بين الحق والباطل، فحسنت ما هي فيه"[1].

وإن القسم يتركب من جملتين:

جملة القسم؛ وتشمل أربعة أركان: المقسم وهو الله سبحانه، فعل القسم، أداة القسم (تصل بين الفعل والمقسم به)، المقسم به.

وجملة جواب القسم وتشمل ركنين: المقسم عليه، وما يتلقى به الجواب.

---

[1] تفسير سورة العصر المتضمنة هداية سبيل الرشاد في أقصر الآماد: لابن المنفلوطي خطيب مَلّوِي، ص: 30.

الركن الأول: أداة القسم (الواو)

﴿وَ﴾ الواو أداة القسم[1]، وهي أكثر حروف القسم استعمالا في القسم بالزمان في القرآن، وقد شاع حذف فعل القسم في القرآن الكريم، في أسلوب القسم بالزمان، إذا كان حرف القسم الواو[2]، وقال الزركشي في البرهان (النوع: السادس والأربعون): "أكثر الأقسام المحذوفة الفعل في القرآن، لا تكون إلا بالواو". وقد ذكر النحاة للواو شروطا منها: إن الواو لا تستعمل في قسم قصد به السؤال، وحذف فعل القسم معها وجوبا. وقد جاءت الواو في

---

[1] إن "أول من تصدى لأدوات القسم الخليل بن أحمد وتلميذه سيبويه. قال الثاني في كتابه: للقسم والمقسم به أدوات في حروف الجر. وأكثرها الواو، ثم الباء، ويدخلان على كل محلوف به...[أي على لفظ الجلالة وغيره من الأسماء الظاهرة]. وقال الخليل: (إنما تجيء بهذه الحروف لأنك تضيف حلفك إلى المحلوف به،... إلا أن الفعل يجيء مضمرا في هذا الباب). والواو لازمة لكل اسم يُقسَم به". (القسم في القرآن الكريم: د. حسين نصار، ص: 87، بتصرف)

[2] انظر: القسم بالزمان في آيات القرآن: أ.د: محمد البع، ص: 892، 895، 897، بتصرف. وقد علل ابن يعيش النحوي المعروف بابن الصائغ (ت 643 هـ) في: (شرح المفصل للزمخشري) سبب حذف فعل القسم بقوله: "ولمّا كان القسم مما يكثر استعماله، ويتكرر دوره بالغوا في تخفيفه من غير جهة واحدة"، فمن ذلك أنهم قد حذفوا فعل القسم كثيرا للعلم به والاستغناء عنه". وبنحوه قال ابن القيم (ت 751 هـ) في: (التبيان، ص: 7): "والقسم لما كان يكثر في الكلام اختصر، فصار فعل القسم يحذف ويكتفى بالباء، ثم عوض من الباء الواو في الأسماء الظاهرة والتاء في أسماء الله".

الذكر الحكيم دالة على القسم في خمسة وثلاثين موضعا، وكانت في كل هذه المواضع مجردة عن الفعل، مما يؤيد قول الجمهور بوجوب حذف الفعل معها. وقد حذف فعل القسم وجوبا في الذكر الحكيم في خمسة وأربعين موضعا. وجاء القسم في جل هذه المواضع بمخلوقات الله تعالى[1].

الركن الثاني: المقسم به (الزمن/ العصر)

الأشياء التي أقسم الله بها: قال ابن أبي الإصبع "المفتتحات بالقسم خمسة عشرة سورة وهي على خمسة أضرب: ... ضرب أقسم فيه بلوازم الأفلاك... ست سور، وهي: النجم، والفجر، والشمس، والليل، والضحى، والعصر"[2].

وقد وردت كلمة ﴿الْعَصْرِ﴾ مقسما بها في القرآن الكريم مرة واحدة

---

[1] انظر: القسم في القرآن الكريم تركيبا ودلالة: عبد الله علي عبد الله الهتاري، ص: 21، 22، 48، 49، بتصرف. وقد "عنيت د. عائشة عبد الرحمن بالقسم بالواو بخاصة. فوجدت أن القسم بها في مستهل السور جاء مع: الضحى، والليل، والفجر: وليال عشر، والعصر، والتين، والزيتون، والنجم إذا هوى، والعاديات ضبحا، والنازعات عرفا، والذاريات ذروا، والصافات صفا، والسماء والطارق، والسماء ذات البروج، والشمس وضحاها، والطور وكتاب مسطور، وكلها سور مكية. ولم تأت سورة مدنية مبدوءة بهذه الواو". (القسم في القرآن الكريم: د. حسين نصار، ص: 91)

[2] الخواطر السوانح في أسرار الفواتح، ابن أبي الأصبع، ص: 80، بتصرف بسيط.

وسميت السورة باسمها.

والمقسم به تقدير مضاف محذوف؛ أي: أقسم برب العصر؛ ونقل الطوسي أن أبا محمد الجبائي (ت 303 هـ) قال: "القسم في كل ما ذكر في القرآن من المخلوقات، إنما هو قسم بربه".

ونسب الرازي هذا القول مرة إلى القاضي عبد الجبار (ت 415 هـ)، وأخرى إلى المتكلمين، وثالثة إلى جماعة من أهل الأصول. واعتل الجبائي بأن القسم لا يجوز إلا بالله.[1]

المقسم به: ما اتصل بمحمد زمانه ومكانه وعمره: وقال الرازي تعليقا على القسم في سورة العصر: "أقسم تعالى بزمان عصر محمد في هذه الآية، وبمكانه في سورة البلد، وبعمره في قوله: (لعمرك)".

واختلف في الأشياء المقسم بها هل لذاتها أم لدلالتها؟

القول الأول: المقسم به: الأشياء لذاتها تنبيها على عظم شأنها عند الله لما أودع فيها من منافع الدنيا والدين وصنوف نعم أبدعها.[2]

وتعدى ذلك إلى الربط بين العظمة وموضع الاعتبار فيه ليشكر

---

[1] القسم في القرآن الكريم: د. حسين نصار، ص: 37.

[2] قارن بتفسير كل من: الآلوسي والزمخشري والرازي.

عليها، عند [الطبرسي في: مجمع البيان في تفسير القرآن].

ويتصل بالتعظيم –الذي جعل مبدأ عاما في المقسم به عند الطوسي [في تفسير البيان] والطبرسي– كلمات أخرى، قد يعبر بها عنه كشرفها وفضلها على جنسها تكرمة لها عند الله والذي جعله القرطبي مبدأ عاما وصاغه الشوكاني في صورة قاعدة عامة في الفتح.

أو قد يعبر عنه بمكان العزة فيه كما ذكر ابن القيم في التبيان –في معرض حديثه عن القسم بالتين والزيتون في الفصل: التاسع–، وعلله ذلك طنطاوي جوهري في التاج المرصع بجواهر القرآن والعلوم (ص: 97) بقوله: "الله بهذه الأشياء إذ رأى نوع الإنسان يقسم بما عز عليه".

وخرج عن هذا المجرى العام اثنان، دافع كل منهما عن رأيه دفاعا مستفيضا، وهما المعلم عبد الحميد الفراهي ود. عائشة عبد الرحمن.

أما الفراهي فقد جاهر في مقدمة كتابه [إمعان في أقسام القرآن] بأنه ألفه من أجل ثلاثة مقاصد، كان الأول منها إبطال الظن بأن القسم مشتمل على تعظيم المقسم به لا محالة، ذلك الظن الباطل الذي صار حجابا على فهم أقسام القرآن، ومنشأ للشبهات.

فأصل القسم –عنده– ليس في شيء من التعظيم. واستدل على ذلك

بما يلي:

- القسم لا يلزمه المقسم به فضلا عن تعظيمه.
- للقسم كلمات ليست في شيء من تعظيم المقسم به.
- ربما أقسم القرآن بما ليس فيه شرف، وما ليس من الجلالة بحيث يقسم بها خالقها، إن كان الإقسام بها لأجل شرفها.
- التعظيم من عوارض القسم.

وكشف عن السبب فيما وصفه بالظن الباطل، فقال [في الإمعان]: "وإذ كانت الشهادة بالله أكبر الشهادات، كثر القسم بها. ولذلك ظن من قل التفاته إلى أساليب الكلام وفنون بلاغته أن الإشهاد لا يكون إلا بالمعبود، وعلى جهة التعظيم".

وخلص إلى أن القسم نوعان متباينان:

- أقسام بصفات الله.
- وأقسام بالمخلوقات.

ولا يراد التعظيم من القسم إلا إذا كان بالله وشعائره. أما القسم بالمخلوقات فليس إلا لكونها آيات دالة.

كما خلص إلى أن في أسلوب القسم خصوصية تشبه ما في بعض الأساليب الأخرى، كما نرى –مثلا– تأكيد الإثبات والإنكار بأسلوب الاستفهام

أو التعجب، في أكثر الألسنة، أو تأكيد التعجب بالنداء.

ويعتقد د. حسين نصار أن الفراهي وقف هذا الموقف، لأنه خلط بين التعظيم والتقديس والعبادة.

يستنبط ذلك من قوله: المقسم به في هذه الأقسام –وإن كان عند المتكلم كريما ومضنونا به– لكنه لا يكون مما يعبده ويقدسه، وأمثال هذا القول.

وأما الدكتورة عائشة عبد الرحمن فقد أعلنت [في كتابها الإعجاز البياني للقرآن ومسائل ابن الأزرق] أن جمهرة المفسرين اتجهوا بالأقسام إلى تعظيم المقسم به ثم مضوا يلتمسون وجه هذه العظمة. وأكثر ما ذكروه يدخل في الحكمة، وهى تختلف تماما عن العظمة. فما من شيء في الكون خُلق عبثا. وكل ما خلقه الله، خلقه لحكمة ظاهرة لنا أو خفية علينا. أما العظمة فلا يهون القول بها لمجرد لمح وجه لظاهر الحكمة في المقسم به. ثم إنهم لم يراعوا القيد في المقسم به. واضطربوا كذلك في ربط القسم بهذه الواو بجواب قسمه.

فأين الصلة بين عظمة العاديات ضبحا، وبين كنود الإنسان لربه، وبعثرة ما في القبور؟

وأخيرا خلصت إلى ما يشبه ما خلص إليه الفراهي. فقد صرحت: الذي اطمأننت إليه –بعد طول التدبير للسياق– هو أن الواو في هذا الأسلوب قد خرجت عن أصل معناها اللغوي الأول في القسم للتعظيم، إلى معنى بلاغي.

المقسم به: الأشياء لدلالتها على قدرة ربها ووجوده وهو قول ثاني رواه أبو حيان عن قتادة. وصاغه الرازي كقاعدة عامة.

واستحسن هذا الوجه ابن خالويه فقال: "أقسم... بمصنوعاته لأنها تدل على بارئ [و] صانع"، وصاغ ابن أبي أصبع قول ابن خالويه في عبارة شاعت في الكتب بعده، قال: "القسم بهذه المصنوعات يستلزم القسم بالصانع، لأن ذكر المفعول يستلزم ذكر الفاعل، إذ يستحيل وجود مفعول بغير فاعل"[1].

ورد الرازي وابن حيان الإقسام بها إلى ما فيها من عجائب صنعة الله.

ونظرت د. عائشة عبد الرحمن في الواو المبدوءة بها آيات الأقسام، في ضوء ما تعرف من أن الأصل فيها أن تأتي في درَج الكلام للربط

[1] الخواطر السوانح في أسرار الفواتح، ابن أبي الأصبع، ص: 111. وقارن بالبرهان للزركشي، النوع: السادس والأربعون.

والعطف، فإذا جاءت للقسم فإن لها الصدارة في مقام التوثيق لما يسبق إنكاره أو الإقرار والشهادة.

فوجدت أن ليس في القرآن (والله) قسما غير قسم المشركين في آيتي الأنعام، ووجدت القسم بـ (رب) في أربع آيات. والواو في كل هذه الآيات في درج الكلام، وليست في مستهل السورة أو الآية، فإذا وقعت في أول الآية كانت مسبوقة بالفاء أو فلا، والقسم فيها على وجهه من التأكيد والتقرير.

ووجدت المفسرين والبلاغيين قنعوا بأنها لإعظام ما تلاها، وحملوا الآيات من التأويلات الفلسفية والإشارية ما لا نتصور أن هذه الواو يمكن أن تحمله من قريب أو بعيد.

من هنا كان وقوفها أمام هذه الظاهرة الأسلوبية في البيان القرآني، لعلها تجتلى من سرها البياني، ما تضيفه إلى فكرة الإعظام التي سيطرت وحدها على كل من قرأت لهم من المفسرين والبلاغيين.

والذي اطمأنت إليه –بعد طول التدبر لسياق الواو في الآيات المستهلة بها– هو أن هذه الواو قد خرجت عن أصل معناها اللغوي الأول في القسم للتعظيم، إلى معنى بلاغي، هو اللَّفت –بإثارة بالغة– إلى حسّيات مدرّكة لا تحتمل أن تكون موضع جدل ومماراة، توطئة إيضاحية لبيان معنويات يُمارَى فيها، أو تقرير غيبيات لا تقع في نطاق الحسيات

والمدركات. وهذا البيان للمعنوي بالحسى، هو مدار استعمال البيان القرآني، وهو الذي يمكن أن يعرض على الآيات المستهلة بواو القسم، فتقبله دون تكلف في التأويل أو اعتساف الملحظ.

وقوة اللفت في مثل هذا الأسلوب تأتي من العدول بالواو عن موضعها المألوف في درج الكلام، فتثير أقصى التنبه.

ولعل السلف الصالح من المفسرين، ما فاهم هذا الملحظ البياني إلا لأن علماء البلاغة قد عرفوا خروج الخبر والاستفهام والأمر والنهى عن معانيها الأولى في أصل اللغة، إلى معان بلاغية نصوا عليها في كتب البلاغة المدرسية. ثم لم يشيروا إلى خروج القسم عن معناه الأول. فكان ما كان من اعتساف التأويل للآيات المبدوءة بواو القسم، لتظل كما أراد لها علماء البلاغة، على أصل معناها اللغوي، لا تخرج عنه إلى معنى بلاغي.

وانفرد بعض العلماء بذكر علل للأقسام لم تتكرر عند غيرهم من مراجعي مثال ذلك قول الطوسي: إن الله أقسم بهذه الأشياء لما فيها من اللطف، وقول الطبرسي: لبركتها، وقول الرازي: لإيجاب الشكر على الناس، وقول أبي حيان: التنبيه على كونها قوام الوجود، وقول الآلوسي: لإرهاب المنكرين، وقول محمد عبده: لتقرير وجودها في عقل من ينكرها، أو لقلب الاعتقاد في قلب من أضله الوهم أو خانه الفهم، أو لتقريع من خصها

بالعبادة،... والحق إنه لا يمكن حصر ما قالوا من علل حصرا شاملا، وبخاصة إذا تتبعنا الأقسام واحدا بعد واحد.

وتكشف هذه الجولة للدكتور حسين نصار أنه يمكن أن نجمع كل الأقوال التي قيلت في تعليل إقسام القرآن بالأشياء في علتين عامتين: العظمة والدلالة. ونذهب إلى أن العظمة تجمع الشرف والعزة والفضل والنفع وما إليها. ونضع تحت اسم الدلالة كل ما أشارت إليه من وجود الله الخالق لهذه الأشياء وصفاته.

وتكشف أيضا أن القدماء لم يجدوا أدنى تعارض بين العلتين العامتين، اللتين ذكرتهما. ولذلك جمع بعضهم بينهما في القسم الواحد، ورد بعضهم عظمة بعض الأشياء إلى كونها دالة على إحدى صفات الخالق.

ويرى د. حسين نصار أن هذا يؤدي بنا إلى أن نعرف أن الفراهي أخطأ حين فرق بين العلتين، وخلط بين التعظيم والتقديس، وظن أن الرازي انفرد بالقول بالتعظيم. وكال له –من أجل ذلك– التهم دون وجه حق، لأن الرازي قال بالعلتين كلتيهما.

وتكشف أن الفراهي ود. عائشة عبد الرحمن سارا في طريق واحد، وأن العلميين والقائلين بالإعجاز العلمي من المحدثين عنوا بعلة الدلالة على

حساب علة العظمة.[1]

الركن الثالث: المقسم عليه

المقسم عليه حال الإنسان[2]، لأن جواب القسم جملة خبرية اسمية موجبة ربط بجملة القسم بإن[3] واللام المزحلقة أو المؤكدة مجتمعتين في قوله: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾، فالإخبار بـ (خسر الإنسان) مقسم عليه بـ (العصر)[4].

نوع القسم في السورة:

من أنواع القسم في القرآن الأقسام التي أقسم بها الله تعالى وتسمى الأقسام الإلهية. ومنها القسم على أحوال النفس البشرية وأن العمل الصالح ومجاهدة النفس كي لا تسترسل مع هواها وهو طريق السلامة والنجاة، وأن

---

(1) انظر: القسم في القرآن الكريم: د. حسين نصار، ص: 14-37، بتصرف.

(2) وقارن بقول ابن القيم: "وأقسم على عاقبته [أي: الإنسان]، وهو قسم على الجزاء" (التبيان، الفصل: الثالث، ص: 10).

(3) جملة جواب القسم بحاجة إلى الرابط اللفظي المبرز للارتباط بينها وبين جملة القسم. والرابط في الجملة المثبتة تفتتح بأداة إنّ المكسورة. و(إن): حرف توكيد يتلقى به القسم، ويزال به الشك والتردد، وتحقق به النسب الخبرية.

(4) القسم بالزمان في آيات القرآن: أ.د: محمد البع، ص: 894، بتصرف.

الارتخاء إلى الشهوة، والأثرة، والعناد، وهو طريق الشقاء.[1]

أغراض القسم في القرآن:

توكيد الخبر المقسم عليه قال به الطوسي والزركشي والسيوطي وصرح به الرازي وابن القيم[2].

أغراض القسم بالزمن:

القسم على حال الإنسان، وتقلبه في النعيم، وجحوده للمنعم ونسيانه من خلقه في أحسن الصور، وسواه في أبدع التكوين في قوله: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾[3].

أسباب ورورود القسم:

- إقامة الحجة ومجابهة الإنكار؛ فالقسم يؤتى به للتقرير وتوكيد الحجة، وتقبيح التكذيب. فالواو للقسم المؤكد لما أقسم به عليه.
- توجيه السامع إلى الإصغاء.
- قوة التأثير وشدة الإيقاع على النفس.

---

[1] القسم في اللغة وفي القرآن: محمد المختار، ص: 98.

[2] القسم في القرآن الكريم: د. حسين نصار، ص: 117-118، بتصرف.

[3] القسم بالزمان في آيات القرآن: أ.د: محمد البع، ص: 897، بتصرف بسيط.

- الاستدلال على عظمة المولى جل وعلا[1].
- تنوع الأساليب منعا للملل.
- لفت النظر إلى مواضع العبرة في هذه الأشياء المقسم بها.[2]

شبهة حول دواعي القسم:

يبدو أن هناك من استنكر أقسام القرآن. وقال: ما معنى القسم منه، سبحانه؟ فإنه إن كان لأجل المؤمن، فالمؤمن يصدق مجرد الإخبار؛ وإن كان لأجل الكافر، فلا يفيده.

وتصدى أبو القاسم القشيري للإجابة فقال: "إن الله ذكر القسم لكمال

---

[1] كلّ الأقسام بالمخلوقات هي أقسام استدلالية، لا كما ذهب بعضهم إلى القول بأنها تعظيم وتقديس للمقسم به من هذه المخلوقات، "فليس من المعقول أن يتصوّر إنسان أن الخالق يقدس مخلوقاته التي أقسم بها". وقد أشار إلى هذا الرأي قديما القلقشندي (صبح الأعشى) بقوله: "ما أقسم الله –تعالى– فيه بشيء من مخلوقاته ومصنوعاته، والمقصود منه مع التأكيد التنبيه على عظيم قدرته وجلالة عظمته، من حيث ابداعها تعظيما له لا لها". (القسم في القرآن الكريم تركيبا ودلالة: عبد الله علي عبد الله الهتاري، ص: 90)

[2] انظر: المرجع السابق، ص: 87–91، بتصرف. وتفسير سورة العصر المتضمنة هداية سبيل الرشاد في أقصر الآماد: لابن المنفلوطي خطيب مَلّوِي، ص: 30، بتصرف.

الحجة وتأكيدها"[1].

قال الرازي ذات مرة: الناس طبقات. فمنهم من لا يقر بالشيء إلا بالبرهان الحقيقي، ومنهم من لا ينتفع بالبرهان الحقيقي بل ينتفع بالأشياء الإقناعية نحو القسم. فإن الأعرابي الذي جاء الرسول ﷺ وسأل عن نبوته ورسالته، اكتفى في تحقيق تلك الدعوى بالقسم [وتابعه مناع قطان في مباحثه].

وأعاد –في موضع ثالث– صياغة السؤال الذي واجهه القشيري، فجعله: الخَلف من الله غير لائق من وجوه:

الأول: أن المقصود من القسم إما إثبات المطلوب عند المؤمن أو عند الكافر. الأول باطل لأن المؤمن مقرّ به سواء حصل الحلف أو لم يحصل، والمكذب لا يصدق مع القسم. فهذا الحلف عديم الفائدة على كل التقديرات.

الثاني: إثبات المطالب العالية الشريفة على المخالفين من الدهرية وأمثالهم بالحلف لا يليق بالعقلاء.

وكان الجواب عند الرازي من وجوه أيضا:

---

[1] البرهان للزركشي، النوع: السادس والأربعون.

أحدها: أنه –تعالى– قرر هذه المطالب العالية في سائر السور بالدلائل اليقينية. فلما تقدم ذكر تلك الدلائل لم يبعد تقريرها. فذكر القسم تأكيدا لما تقدم، لاسيما والقرآن إنما أنزل بلغة العرب، وإثبات المطالب بالحلف طريقة مألوفة عند العرب.

والأخر: أن العرب كانت تحترز عن الأيمان الكاذبة، وتعتقد أنها تدع الديار بَلاقع (خربة). فلما أكثر النبي ﷺ من الأيمان بكل شريف، ولم يزده ذلك إلا رفعة وثباتا، حصل لهم العلم بأنه لا يحلف بها كاذبا، وإلا لأصابه شؤمها، ولناله المكروه في بعض الأزمان.

ولم يرض عبد الحميد الفراهي عن أقوال الرازي، ونقض الوجوه التي أوردها واحدا بعد واحد.

فاعترض على الوجه الأول بأن القرآن يناقضه، لأنك ترى القسم في أوائل الوحى أكثر مما تراه بعد استيفاء الدلائل.

وعلى الخامس: بأنه أصاب فيما قال، لو لم يزد عليه ما قال من أن النبي ﷺ أكثر من الأيمان بكل شريف، كأنه أراد أنهم إذا أقسموا بشريف خافوا سخطه، إن كذبوا في يمينهم به. وضعف هذا القول ظاهر فإن أقسام القرآن ربما تكون بما ليس فيه شرف. والقرآن يهدى إلى ألا تخاف إلا الله. وأي شؤم يخاف من التين والزيتون؟! ثم النبي ﷺ كان يبلغ القرآن من الله،

فالقسم منه –تعالى– وهو لا يخاف أحدا.

فلو اقتصر على الجزء الأول من جوابه، وقال إن العرب كانت تحترز عن الأيمان الكاذبة، وتخاف مغبتها، وتعتقد أن الرجل لا يحلف كذبا، فإذا حلف أحد، أصغوا إليه؛ كان أقرب إلى ما يجاب به.

وروى د. يوسف خليف –في: دراسات في القرآن والحديث– أن السيوطي علل الأقسام بقرب العهد من العصر الجاهلي، وأن القرآن جرى على عادة العرب في القسم. ورأى أن السببين اللذين ذكرهما السيوطي والقشيري يكمل أحدهما الآخر.

ويتضح من هذه الجولة أن الأقسام أرّقت المتكلمين من المفسرين خاصة من أمثال الزمخشري والرازي، وأن السؤال عن قيمة هذه الأقسام وتسويغ صدورها من الخالق يواجه الواحد منهم بعد الآخر. ولذلك نجد الزمخشري مثلا يتعرض للأمر مرتين، والرازي يسعى للإجابة عنه في أكثر من موضع، وأفاض في ذلك. كذلك يتضح أن الفراهي مازال يتصدى للرازي، ويسعى –بحق أو باطل– إلى أن ينقض كل ما بنى.

ويتضح أن المحْدَثين اعتمدوا في إجابتهم على زيادة المعرفة بالنفس البشرية، وما تتطلع إليه، وما تقتنع به. ولكن د. حسين نصار خالف د. يوسف خليف في جعله القرب من العصر الجاهلي أحد دواعي الأقسام

القرآنية.[1]

شبهة حول المقسم به (الحسية في الأقسام المكية والعقلانية في الأقسام المدنية):

يغلب على الآيات المكية في السور القرآنية قصر الآيات والسور، وكذلك كثرة الأقسام الواردة فيها.

وكان من العلماء من تأثر بأقوال المستشرقين، فوازن بين الأقسام في العهد المكي والأقسام في العهد المدني. فزعم أن القسم المكي يكثر فيه القسم بالضحى والشمس... إلى آخر ما هو جدير بالبيئات الساذجة التي تشبه بيئة مكة تأخرا وانحطاطا، وأن القسم المدني خلا من القسم بهذه المحسوسات.

فتصدى له د. محمد محمد أبو شهبة –في: المدخل[2]–، ورماه بأن غرضه –من هذا القول– الزعم بأن القرآن متأثر بالبيئة، ليصل إلى التشكيك فيه.

---

[1] القسم في القرآن الكريم: د. حسين نصار، ص: 119–126، بتصرف.

[2] انظر: المدخل لدراسة القرآن الكريم: محمد أبو شهبة، مكتبه السنة – القاهرة، ط/2–2003 م، ص: 233–245، بتصرف.

وأعلن أن هذا الكلام مردود بما يأتي:

– إن الله أقسم –في القسم المكي– بالمعقول كما أقسم بالمحسوسات. فمن ذلك قسمه بالقرآن والملائكة والنفس الناطقة...

– إن القسم بهذه الأشياء لا لكونها محسوسة، وإنما هو تنبيه إلى ما تشتمل عليه من إحكام في الخلق والصنعة، وما تنطوي عليه من أسرار وعجائب، ونعم وآلاء.[1]

* * *

[1] القسم في القرآن الكريم: د. حسين نصار، ص: 49، بتصرف.

- **الفصل الثاني: التفسير الصوتي لسورة العصر**

قرأت لبعض الباحثين تفسيرا لهاته السورة على وجه عجيب؛ يقول د. حمادي الموقت في تفسيره الصوتي لسورة العصر[1]: "استهل الله ﷻ

[1] من خلال قراءة توطئة البحث المذكور (ص: 80) نستطيع أن نخلص إلى أن التفسير الصوتي لنظم النص القرآني يهدف إلى ربط أصوات السور بمعاني آياتها العتاق، والكشف عن السر الإعجازي للسور استنادا إلى المكون الصوتي فقط في تحقيق جمالية اللفظ القرآني وقوته وبلاغته. (قلت): وعليه فهو تفسير بالرأي مبني على علم الأصوات، وله ما يؤيده ويشهد له بالاعتبار من القرآن والسنة والسيرة، وحقه أن يذيل به المفسر المباحث اللغوية، هذا وقد جاء في خلاصة البحث (ص: 78، بتصرف) أنه: "يروم هذه التفسير تسليط الضوء على النظام الصوتي والصواتي لسورة العصر، ومحاولة سبر أغوارها وبعدها الإعجازي استنادا إلى النسق الصوتي نفسه وباستقلالية شبه تامة عن المكونات اللغوية الأخرى: الصرفية والنحوية والمعجمية والبلاغية...، من منطلق أن الصوت باستطاعته وحده استيعاب النص القرآني وتأويل دلالات سوره؛ انطلاقا مما تحدثه ظواهره من تأثير بَيّن على السامع في طريقة التشكيل الصوتي والإيقاع العالي". ويؤكد المفسر هذا المنطلق مرة أخرى في خاتمة بحثه (ص: 107) بقوله: "إن فهم معاني النص القرآني لا يقتصر على كتب التفسير أو بالضرورة أن تكون مستويات اللغة متضافرة، بل يكفي لذلك التفسير اعتماد البعد الصوتي فقط حتى يلبي المطلوب". ولعمري فإن هذه الدعوة الصريحة إلى القطيعة مع قواعد التفسير وضوابطه وشروطه لهي عظيمة الخطر موردة للزلل والباحث نفسه يعي هذا الأمر الجلل إذ قال في توطئة بحثه (ص: 80): "والحق أن الاجتراء على تفسير النص القرآني، وتأكيد معانيه في منأى عن نظام لغوي متماسك تشترك فيه وحدات محكومة بمعايير وقوانين متماسكة مع بعضها بالشكل الذي لا يمكن=

سورة العصر بأسلوب القسم ﴿وَالْعَصْرِ﴾ فكان المقسِم هو الله ﷻ لأنه الأنا المتحدثة في لحظة إنزال النص. وابتداؤه بهذا القسم الإلهي هدفه تعظيم المقسَم به ولفت الانتباه إلى إشاراته وإيحاءاته، ومن ثمّ دفع الشك والريب اللذان قد يخالطا قلب الإنسان سواء المؤمن منه أم الكافر، ذلك أن الخطاب موجه للإنسان، وهو ما ينسجم مع مبدأ السور المكية التي كانت تركز في بداية الدعوة على العقيدة والتوحيد وبالتالي على الإنسان من كونه إنسان

= فصل عُراها، لهو أمر محفوف بمخاطر اللحن ومجانبة الصواب، إذ لا يمكن فصل مستوى عن آخر، ذلك لأن النظام القرآني له طبيعة إلهية تعمد التنسيق والتنظيم بشكل أعجز معاصريه ولاحقيه على الإتيان بمثله". (قلت): فالملاحظ أن علم التفسير الصوتي على ندرة أبحاثه منذ إرهاصاته المبكرة عند كل من الجرجاني وابن جني وغيرهما إلى وقتنا الحاضر عند كورديا أحمد حسن صالح في كتابه الموسوم بالنظام الصوتي التوليدي في السور المكية القصار لم ينضج بعد لنجني منه ثمارا ينتفع بها في تفسير القرآن، فهو حاليا يحاول أن يفسر علميا ظاهرة التأثير الصوتي لنظم القرآن التي تأخذ بألباب سامعيها وكيف تأثر في قلوب متلقيها، لكن بأسلوب علمي جاف عبارة عن جداول ورسوم بيانية ناهيك عن لغة متخصصة لا يفهما إلا المشتغلون بعلم أصوات اللغة العربية أما غير المتخصص فهو أشبه ما يكون أمام طلاسم سحرية لا يفقه منها شيئا مما يجعل هذا العلم بصيغة طرحه الحالية بعيدا كل البعد عن روافد علم تفسير القرآن إلى أن ينضج على مستوى لغة العرض ونتائجه. ولئن سميناه تفسيرا فلزعم المشتغلين به ذلك، وإلا فيحمل على المجاز عندنا لأنه يخالف التفسير في معهود العوام وعرف العلماء على حد السواء.

بغض النظر عن معتقده ودينه. ليأتي التأكيد على المقسَم به في قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ بمؤكدين اثنين على مذهب البلاغيين حين يُنكِر المخاطَب الخبر، والمؤكدان هما: الأداة ﴿إِنَّ﴾ وصوت اللام في عبارة ﴿لَفِي﴾ ليستثني الله تعالى من قسمه وتأكيده هذين: المؤمنينَ الذين يعملون الصالحات ويتواصون بالحق ويتواصون بالصبر، في إشارة بليغة إلى أن الإنسان الحقيقي هو المؤمن الذي يدخل في زمرة من عمل عملا صالحا ودعا إلى الحق والصبر، بل كانت حياته كلَّها مُعطرة بمسك الأعمال الصالحة، ومُسَيَّحَة بقيمتي الحق والصبر. فكان الإيمان والعمل الصالح وقيمتا الحق والصبر –وفق هذا– ما يميز إنسانية الإنسان، ولا شيء غير ذلك.

وتماشيا مع هذا السياق الرباني، وفي تناغم تام مع دلالته؛ تنجلي –وبشكل بليغ مُعجز– أدوار الأصوات اللغوية في السورة وما تحويه من سمات الضعف والقوة، والشدة والتوسط، والجهر والهمس، والاستعلاء والاستفال... كما بين الحاء والقاف في ﴿الْحَقِّ﴾، حيث صوت الحاء المهموس المستفل الضعيف وكأنه يعبر عن غرابته وضعفه في المنطلق، ثم يتدرج في الإبانة والظهور والعلو الذي تعبر عنه سمات صوت القاف القويّ الوقفيّ، بل وتقفية وحدته اللفظية على ما هو وقفيٌّ بالذات أي صوت

وقفي؛ يحمل في ثناياه ملحظا رمزيا رهيبا، مفاده الأمر الرباني بضرورة الوقوف عند معنى الحق والعمل به دون مُواربة كقيمة محمودة مرغوبة، وكونه مجهورا لأنه كما يقول علماء الأصوات (حرف أُشبع الاعتماد من موضعه، ومُنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد، ويجري الصوت)، ثم إنه –فضلا عن ذلك– شديدٌ لمنعه: (الصوتَ من أن يجري فيه)، كما يمنع الحقُّ شكوك الباطل من أن تجري فيه تماما بتمام. في حين تبدو أصوات الصاد والباء والراء في ملفوظ ﴿الصَّبْرِ﴾ متباينة على مستوى سماتها الصوتية، بين الاحتكاك والاستعلاء والهمس والصفير كما في الصاد، والشدة والانفجار والجهر والاستفال كما في الباء، ثم الاحتكاك والجهر والتكرار كما في الراء، وهذا بتباين الأجناس البشرية في تقبلهم وتفاعلهم مع قيمة الصبر ودرجته، على عكس مخارجها المتقاربة التي تمثلت في: أسلة اللسان، والشفتين، وذلق اللسان على التوالي، كثلاثية تكفي للتوكيد على وجوب اعتياد اللسان البشري ذِكرَ الصبر مع ترطب الشفتين به، كقيمة مرغوب فيها إلى جانب الحق، بل ولعل ما يرمز إلى ذلك تكرار ويؤكد عليه صوت الراء نفسُه الذي يقفو اللفظة، ويسير بها نحو مسارات إثبات الإيمان والربح للعبد إنْ عمل به وبالحق معا: أي وقفا مع الحق حتى لا يظهر الباطل عليه، وتكرارا للصبر حتى لا يتسرب الجزع فيه نفسه.

ولو تأملنا –أكثر– السمات الصوتية للأصوات الصامتة كلِّها؛ تلك

التي تدخل ضمن النسيج الداخلي لتركيب السورة نلفي أنها تتوزع على 17 صوتا صامتا هي: (و، ل، ع، ص، ر، ء، ن، س، ف، ي، خ، ذ، م، ح، ت، ب، ق) اتسمت أولاها المكونة لكلمة ﴿وَالْعَصْرِ﴾: (و، ل، ع، ص، ر) بالجهر والاحتكاك والقوة وهذا تناغم تام مع مقام القسم بالعصر الذي يمتح قوته وصرامته من قضية الخسران التي نبه الله تعالى خلقه إليها في حالة ما إذا لم يُعمل بأمر الإيمان والعمل الصالح والتواصي بقيمتي الحق والصبر: أما الأصوات التي نسجت قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾، فليست بمنأى عن موضوع السورة، أو صلب وسائل التعبير فيها. ذلك أن أغلبها تفرد بسمة الضعف المتجلية في الرخاوة والهمس والاستفال ثم الاحتكاك، وكل هذا يصب في سعي الإنسان الحثيث من أجل الخروج من دائرة الهوان والخسران، التي حشر نفسه فيها ظلما وجهلا منذ أن قبل بتحمل الأمانة التي أبت السماوات والأرض والجبال حملها كما صرح بذلك الله عز وجل في سورة الأحزاب بقوله: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: 72].

والقصد في هذا؛ أن دائرة خُسر الإنسان محاطة بمؤكدين لفظيين اثنين، من جهة، وبصوت ضعيف تمركز في قلب لفظتي (الإنسان) و(الخسر)، هو صوت السين –كما أسلفنا– من جهة ثانية، باعتباره صوتا

مهموسا (يضعف الاعتماد عليه عند خروجه مع النفس) فضلا عن أنه لا يمنع الصوت أن يجري فيه، ناهيك عن كون دلالة الخسران مستمرة ومتكررة بتكرار صوت الراء الذي أقفل اللفظة، والنون ليس ببعيد عن تواضع هذا الواقع سواء على مستوى استفاله أو انفتاحه أو توسطه.

لكن لا شك أن هناك استثناءً صوتيا، ينبثق من دنيا ربانية جديدة، محله الذين صدّقوا الله ووحَّدوه، وآمنوا به وأطاعوه، وعملوا الصالحات، وأدّوا ما لزمهم من فرائض، واجتنبوا ما نهاهم عنه من معاصي، فهؤلاء يمثلهم جنس الإنسان بصيغة الجمع لا بصيغة المفرد. فأصوات الذال، واللام، والنون، والميم، والعين، والصاد، والحاء، والتاء كلها تتماشى وسياق آية الاستثناء التي قال فيها تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾، ولعل جو الخفة والتجانس والتواضع هذا؛ هو ما سيطر على مضمون آية الاستثناء المذكورة؛ وسيطر على مختلف أصواتها في مقدمتها أصوات اللام (9 مرات) والصاد (5 مرات) والميم (مرتان) والنون (مرتان)، الحاملة لدلالة التقدير والإجلال من خلال توسطها، لأن المقام مقام التضرع والخشية، والإيمان والعمل الصالح، قال تعالى: ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه: 108]. ولأنه قول حق، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: 42]. نستجمع المعطيات الصوتية أعلاه، تلك التي آمنا بدورها في نسج البنية

الصوتية والنطقية لسورة العصر؛ ونختزلها أربع وحدات معجمية/ صريفات نراها قد تربعت على عرش السورة ومحوريتها هي: (عصر) و(خُسر) و(حق) و(صبر) وقد جردناها من أداة تعريفها (ال) ليتضح لنا جليا مدى التجانس الصوتي الذي ميزها، سواء على مستوى صيغها الصرفية الموحدة، (فَ ع ل) أم على مستوى توافق أعداد صوامتها وتقابل صفاتها في تأكيد تام للضعف والانكسار والخسر الذي يعتري الإنسان في عصره ما لم يعتصم بحبل الحق والصبر والعمل الصالح[1].

* * *

[1] التفسير الصوتي والصواتي للنص القرآني سورة العصر نموذجا، د. حمادي الموقت، المحور (3): الخصائص الصوتية لصوامت السورة، ص: 86-89، 92-93.

البيان التفصيلي

الناس في هلاك وخسران إلا من استثناهم رب العالمين

قوله ﷻ: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١﴾

هذا قَسَم وفي معناه "قيل: المراد (ورب العصر)[1] فذكر المضاف إليه وترك ذكر المضاف إيجازا وإن ربنا تعالى جده لجدير بأن يقسم به وقد عزي هذا إلى كثير من المفسرين. قلت (الكافِيَجي): وعلى هذا أن يقال: ما الداعي إلى ارتكاب هذا النوع من المجاز وهو مجاز الحذف، مع أن الأصل عدمه، والقسم بنفس العصر حقيقة ممكن لا محذور فيه؟"[2]، وقد أقسم الله

---

[1] ومبناه: "أن الكلام على تقدير مضاف محذوف، وهذا مسلك متبع عند بعض المفسرين والعلماء؛ تخلصا من الإقسام بغير الله تعالى لاسيما مع ورود النهي عن ذلك، وفيه مقال؛ إذ لا يستقيم التقدير في كل المواضع، كما أنه لا يجوز أن يقاس الله تعالى على خلقه، فإذا ما ورد النهي للبشر عن القسم بغيره تعالى، فلا يتعدى هذا إلى الخالق سبحانه وتعالى بحال من الأحوال؛ فله جل جلاله أن يقسم بما شاء على ما شاء؛ مما يدفع التقدير، خاصة وأنه من المقرر أن الحذف خلاف الأصل، وأن إجراء الكلام على ظاهره متعين؛ ما لم تدعو ضرورة إلى خلافه، وأن ما لا يحتاج إلى التقدير أولى مما يحتاج إليه" (أسلوب القسم في سورة العصر: لأمل محمد عبد الفراج علي راشد، مدرس التفسير وعلوم القرآن بجامعة الأزهر الشريف، ص: 1104، الهامش رقم: 3).

[2] ذخيرة القصر في تفسير سورة العصر، ص: 545-546، بتصرف بسيط.

ﷻ بالعصر قسما يراد به تأكيد الخبر، والمقسم به من مظاهر بديع التكوين الرباني الدال على عظيم قدرته وسعة علمه[1]. ويجوز على الله ﷻ أن يقسم بما يشاء من مخلوقاته، وأما المخلوق فلا يجوز له أن يقسم بغير خالقه، لقوله ﷺ: «من كان حالفا، فليحلف بالله أو ليصمت» [صحيح البخاري، كتاب الشهادات، باب كيف يستحلف].

---

(1) أقسم الله بالعصر لأنه أكبر شاهد على ما أقسم عليه وهو ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾، و"إن الله يقسم بما شاء على ما شاء... وإن القسم أتى للإثبات في قوله: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾... وأقسم بالعصر [وهو فعل] على طريقة القسم في القرآن ليؤكد معنى المقسم عليه" (انظر: تفسير جزء عم: للشعراوي، ص: 518-520، بتصرف). وقالت عائشة بنت الشاطئ: "لم يتعلق (الطبري) في تفسيره بفكرة عظمة العصر التي سيطرت على جمهرة المفسرين بعده، فراحوا يتأولون وجه العظمة في العصر على اختلاف الأقوال في تفسيره. وقد جمع الرازي ستة وجوه في عظمة العصر بمعنى الدهر، وثلاثة أوجه في عظمته بمعنى الوقت المعين من النهار، وستة في صلاة العصر، ثم بين وجه عظمته إن كان مرادا به عصر النبوة... وترى أنهم حملوا لفظ العصر كل هذه التأويلات الفلسفية والإشارية مما لا نتصور أن القرآن الكريم لفت إليه بلفظ ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾. وفي البيان القرآني من آيات الليل والنهار ما يجلو الحكمة فيهما بما يفهمه الناس بأيسر ملاحظة وتأمل" (التفسير البياني للقرآن الكريم: 77/2، 79، بتصرف). وقد سبقها فيما ذهبت إليه الإمام الشوكاني بقوله: "ولا يخفاك أنه لا وجه لشيء من هذه التقديرات، ولله سبحانه أن يقسم بما شاء من مخلوقاته، ولا يحتاج مثل ذلك إلى تعليل يكون للمقسم به شرفا وفضلا [كمن قال: هو قسم بعصر النبي ﷺ لكونه أشرف العصور، وأفضل أجزاء الدهر]، فالرب لا يسأل عما يفعل" (النشر لفوائد سورة العصر: للشوكاني، ص: 45، بتصرف بسيط).

وفي وجه القسم بالعصر يقول الفراهي: "قد أشهد الله العصر تذكارا لما عملوا من جريان حكم الله على الأمم الخالية حسبما أصلحوا أو أفسدوا في الأرض، ليعلموا أنهم لا بد مجزيون يوما.

وكذلك أشهد الله على خسارة الإنسان بهذا الزمان الذي هو رأس بضاعته، وهو أسرع شيء زوالا، مع أن الإنسان معتمد عليه وغافل عن يوم انتهاء عمره ولقاء الله وجزاء أعماله. فإنما مثله كمن بضاعته الثلج[1]، وهو

---

[1] قال ابن الجوزي: "يا من عمره يذوب ذوبان الثلج توانيك أبرد، كان بعض من يبيع الثلج ينادي عليه: (ارحموا من يذوب رأس ماله)" (المدهش: لابن الجوزي ت 597 هـ، تحقيق د. مروان قباني، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط/2– 1985 م، الفصل: السادس والخمسون، ص: 354). وذكر نحوه الرازي في تفسيره فقال: "وعن بعض السلف: (تعلمت معنى السورة من بائع الثلج) كان يصيح ويقول: (ارحموا من يذوب رأس ماله، ارحموا من يذوب رأس ماله) فقلت: (هذا معنى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ يمر به العصر فيمضي عمره ولا يكتسب فإذا هو خاسر)" (التفسير الكبير مفاتيح الغيب: للرازي: 278/32). إذ "لم يكن في الزمن الماضي ثلاجات يوضع فيها الثلج، لكن كانت تصنع قوالب للثلج، فالناس في يوم من الأيام لم يشتروا منه الثلج، وهذا الثلج إذا لم يبعه سينصهر ويصير ماء كأي ماء، فقارب وقت العصر بعدما انفض السوق أو كاد وما أحد اشترى منه، فظل يجول في الطرقات وهو يحمل الثلج ويقول: ارحموا من يذوب رأس ماله! يعني: اشتروا مني الثلج قبل أن يذوب، فهذا رأس مالي، وهذه أعظم الخسارة... إذا ذاب الثلج ذهب كل رأس ماله وتبخر؟! فيريد هذا العالم أن يقول: إن السورة تشير إلى أن رأس مال الإنسان هو الوقت، والوقت دوما في نقصان مثل الثلج الذي ينصهر رويدا=

غافل عن الاقتناء به ثمنا يبقى، بل يتلذذ برونقه الزائل وبرده الفاني حتى تنفد هذه البضاعة ويهجمه الأجل الموعود، فيعلم حينئذ خسرانه...

هذا هو المراد من قول بعض العلماء كالقسطلاني –في كتابه إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري– وغيره في تفسير ﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾: (أقسم بالدهر لاشتماله على العجائب والعبر)"[1].

وفي الدلالة اللغوية والاستعمالات العربية لكلمة ﴿الْعَصْرِ﴾[2] يقول

= رويدا. فالوقت في نقصان وذهاب، فحتى تجبر هذا النقصان لا بد أن تستدرك بأن تستثمر الوقت في طاعة الله ﷻ" (محمد أحمد إسماعيل المقدم: دروس صوتية لتفسير القرآن الكريم، موقع إسلام ويب)، وقارن بـ: (في رحاب تفسير سورة العصر: للحفناوي، ص: 813).

[1] تفسير نظم القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص: 386–387، بتصرف بسيط.

[2] العَصْر لغة [اسم مفرد يذكر ويؤنث، جمعه: أَعْصُر وهو جمع قلة، وعُصُور وهو جمع كثرة، وأَعْصَار، والمثنى عصران]: ومادة (ع ص ر) قد انطوت على دلالات كثيرة، ومعان وفيرة منها: العَصْرُ: الدهر، فإذا احتاجوا إلى تثقيله قالوا: عُصُرٌ، مضموم، وفي التخفيف بفتح العين. وعَصْرُ الشيء: عهده وزمانه، والعَصْرُ: اليوم، يقال للعشي: عَصْرُ، ويقال للغَدَاةَ والعَشِي: العَصْرَانِ. وقيل: العصران: الليل والنهار، وقولهم: صَلَاة الْعَصْر –وهي الصلاة المفروضة بين صلاتي الظهر والمغرب– سُمّيت بذلك لِأَنَّهَا تعصر أي تؤخر، وتصلى فِي أحد العصرين؛ وهو العشي إلى احمرار الشمس آخر النَّهَار. والجاريةُ إذا حُرِّمَتْ عَلَيْها الصَّلاةُ فقد: أَعْصَرَتْ وهي مُعْصِرٌ، وقالوا: بَلَغَتْ عَصْرَها، وعَصْرُ =

محمد أجمل أيوب الإصلاحي في مفردات القرآن: "أطبقت كتب اللغة والغريب على أن العصر هو الدهر، لا فرق بينهما. أما العلامة الفراهي فقد هداه تذوقه لمواقع استعمال كلمة العصر في كلام العرب والنظر في مشتقات مادته إلى أن العصر ليس مرادفا للدهر فذكر في كتاب مفردات القرآن أن للعصر معنيين: (الزمان الماضي، وآخر النهار). ثم أورد الشواهد على قوله[1]، وقد توسع في تأصيله وتحقيقه في تفسير سورة العصر في فصل

= شباب الفتاة: سن بلوغها وأوان محيضها وهي المُعْصِرُ. والعَصْرُ: المطر، والعَصْرُ: العطية.

وأما عَصْر [مصدر]، ومنه عَصْرُ الدابة ونَحْوِهَا: أي إنهاكها وإهزال جسدها، وعَصْرُ الشيء: ضغطه ضغطا شديدا، والعَصْرُ: انضمام الشيء إلى نفسه وتلاقي أجزائه بضغطه، والعُصارَةُ: ما سال عن العَصْرِ. إلخ... انظر: كتاب العين: للخليل بن أحمد الفراهيدي (ت 170 هـ)، وجمهرة اللغة لابن دريد (ت 321 هـ)، وتهذيب اللغة للأزهري (ت 370 هـ)، والمحيط في اللغة للصاحب بن عباد (ت 385 هـ)، والصحاح تاج اللغة وصحاح العربية للجوهري (ت 393 هـ)، وكتابَيْ: مقاييس اللغة، ومجمل اللغة لابن فارس (ت 395 هـ)، والمحكم والمحيط الأعظم لابن سيده (ت 458 هـ)، والإبانة في اللغة العربية للصحاري (ت 511 هـ)، والقاموس المحيط لفيروزآبادى (ت 817 هـ)، وموقع معجم الدوحة التاريخي للغة العربية، جذر: عصر:

https://www.dohadictionary.org

[1] "وهكذا نرى أن السابقين فسروا (العصر) بالدهر والزمان عموما، وأن الفراهي رأى أن ذلك التفسير غير دقيق، فانطلق يرتاد رياض الشعر الجاهلي باحثا عن حقيقة المعنى فانتهى إلى أنه ليس مطلق الزمان وإنما هو الزمان الماضي، وأكد ذلك بالشواهد الشعرية=

عقده بعنوان: (دلالة كلمة العصر)، ومما قال فيه: (اعلم أن كلمة العصر اسم للزمان من جهة ذهابه ومروره، كما أن الدهر اسمه من حيث مجموعه. ولذلك يستعمل العصر كثيرا للأيام الخالية، [...] ومن ها هنا (الإعصار) للريح السريعة من جهة المرور والذهاب. و(عصر المائع): إمراره، و(العصر) لآخر النهار من جهة ذهاب النهار وانعصاره. ومنه: عنصر الشيء[1]. فكلمة العصر تذكرهم الأيام الخالية، وتوجههم، من صفة الزمان إلى زواله وسرعة ذهابه. والأولى عبرة لهم بما جلب على الإنسان من حكم الله فيهم حسب أعمالهم، والثانية تحرضهم على التشمير لكسب ما ينفعهم من زمان أجلى صفته سرعة الزوال. وكان للعرب إلمام بطرف من هذين الأمرين)[2]، والشواهد على ما ذكره المؤلف كثيرة جدا.

ثم كلام المؤلف على مشتقات مادة (عَصَر) يبين أن العصر بمعنى الزمن و (عصر المائع) و (العنصر) كل ذلك من أصل واحد، بينما جعله ابن فارس [في مقاييس اللغة] أصولا ثلاثة [صحيحة]: الأول دهر وحين،

= الكثيرة. وهذا يعني أن المعاني الدقيقة يمكن الوصول إليها من خلال استعمال العرب الأقحاح لها في شعرهم" (معاجم مفردات القرآن موازنات ومقترحات: لأحمد حسن فرحات، مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف بالمدينة المنورة، ط/1- 1421 هـ، ص: 57).

[1] عنصر الشيء: أي: أصل الشيء من هواء وتراب... إلخ.

[2] انظر: تفسير نظم القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص: 383-385، بتصرف بسيط.

والثاني ضغط شيء حتى يتحلب، والثالث تعلق شيء وامتساك به، وجعل العنصر من الأصل الثالث"[1].

"**فالأول العصر، وهو الدهر.** قال الله ﷻ: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾ [العصر: 1-2]...

والأصل الثاني العصارة: ما تحلب من شيء تعصره. والعرب تجعل العصارة والمعتصر مثلا للخير والعطاء، إنه لكريم العصارة وكريم المعتصر... ومن الباب: المعصرات: سحائب تجيء بمطر. قال الله -ﷻ: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا﴾ [النبأ: 14]. وأعصر القوم، إذا أتاهم المطر. وقرئت: "فيه يغاث الناس وفيه يعصرون"، أي يأتيهم المطر. وذلك مشتق من عصر العنب وغيره. فأما الرياح وتسميتهم إياها المعصرات فليس يبعد أن يحمل على هذا الباب من جهة المجاورة، لأنها لما أثارت السحاب المعصرات سميت معصرات وإعصارا... والإعصار: الغبار الذي يسطع مستديرا؛ والجمع الأعاصير... ويقال في غبار العجاجة أيضا: إعصار. قال الله -ﷻ-: ﴿أَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾ [البقرة: 266]...

والأصل الثالث: العصر: الملجأ، يقال اعتصر بالمكان، إذا التجأ

---

[1] انظر: مفردات القرآن: للفراهي، ص: 71-73.

إليه"[1].

ومادة (عَصَر) لغة: استخرج ما فيه، والمعنى الأصلي للعصر القوة في صورة ضغطها لاستخلاص العصارة، وهذه القوة تكون العصر، والعَصْر يقع بحصر الشيء بين أشياء شديدة تحيط به، والمعنى المحوري: ضغط بثقل بالغ يُسِيلُ أو يُنْفِذُ ما في الأثناء من مائع ونحوه[2]، والعَصْرُ: الدهر، والعصران: الليل والنهار، وقد قالوا بقوة الدهر حين قالوا: "وما يهلكنا إلا الدهر"، وحدثوا عن جذب الليالي وإفنائها الناس. ومن لطف مصدر العَصِير (أي أنه مختزن في الثمر خفي مع سيلانه شيئا فشيئا فيوحي بالاستمرار) عبر بالعصر عن (الدهر)، لامتداده هكذا، وقد ورد من المادة الزمن في سورة العصر ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾؛ حيث أقسم سبحانه بالعصر، وهو الدهر، كما عبر به عما (بعد الزوال إلى احمرار الشمس)، لأن هذا الوقت نتيجة وامتداد لبلوغ الشمس أَوْجَهَا (نعني أقصى شدتها) في فترة الصبح إلى الظهيرة، ثم إن الشمس تبدو أو تظل هذه الفترة في انحدار

---

[1] معجم مقاييس اللغة: لابن فارس: 4/340-345، بتصرف.

[2] وفي توجيه هذا المعنى من دلالة العصر يقول الشيرازي: "كلمة ﴿وَالْعَصْرِ﴾ في الأصل الضغط، وإنما أطلق على وقت معين من النهار [وقت العصر] لأن الأعمال فيه مضغوطة" (الأمثل: 15/402). ولا يخفى بُعد معنى الضغط حتى يحمل عليه السياق التفسيري العام، وإن صح هذا الوجه تأصيلا، إلا أن رائحة التكلف تشتم من هذا الحمل. قارن بـ: (في رحاب تفسير سورة العصر: للحفناوي، ص: 812).

كأنها تدفع أو تضغط حتى تغرب[1]، فإن حملنا دلالة العصر على المعنى المصدري: "الضغط على الشيء حتى يتحلب" ظهرت المناسبة في القسم بالعصر من حيث زمن النزول أولا، لأن السورة من أوائل السور نزولا وهو وقت كانت تعتصر فيه الإنسانية اعتصارا لاستخراج خلاصتها [وهم] الذين اختارهم الله لحمل رسالة الإسلام، فهؤلاء رضوان الله عليهم هم خلاصة الإنسانية وأشرفها[2]، وبهم ساد الإسلام بقاع الأرض.

ولعل هذا الاعتصار بالتكليف والابتلاء والذي هو سنة الله في خلقه لاستخراج خلاصة الأفراد والأمم هو سر تقديم هذه الحقيقة بعمومها الصادم ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ تم استثنى ﷻ القلة الناجية التي هي خلاصة الإعتصار ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾[3]، وهكذا تبدوا المناسبة واضحة بين الدلالة المادية للفظ القسم

---

[1] قارن بمادة (عصر) في: مفردات غريب القرآن: للراغب الأصفهاني، والمعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم: لمحمد حسن حسن جبل، ص: 1474 وما بعدها، وبمخطوطة الجمل: لحسن عز الدين الجمل: 3/134-135، وبالتفسير البياني للقرآن الكريم: لعائشة بنت الشاطئ: 2/75، 80.

[2] وعبر الشيرازي عن هذا المعنى بقوله: "إنها إشارة إلى الإنسان الكامل الذي هو في الواقع عصارة عالم الوجود والخليقة" (الأمثل: 15/403). وهذا الحمل على عصور الفتن والمحن التي ينضغط فيها الإنسان ويعصر فيها معنى مجازي.

[3] انظر: سورة العصر دراسة في المناسبات والسمات، لمحمد أمين أبو شهبة، ص: =

العصر بدلالته المصدرية، وبين مقصود السورة، ومع ذلك فهناك ما يعكر هذا التوجيه وهو طريقة القرآن في القسم بأسماء الذوات لا بأسماء المعاني وسيأتي بيانه مفصلا في محله[1].

هذا وقد تجلت الدلالة اللغوية عند المفسرين في أضيق نطاق، ممثلة فيما هو أكثر استعمالا، وأبرزها شيوعا، إذ اختلفوا في المراد بالعصر ها هنا هل الزمن كله أو جزء منه على سبعة أقوال وهي:

القول الأول: أن العصر في كلام العرب هو (الدهر) مطلق الزمان، أي: كل زمان البشرية ومراحل تاريخها، وإنما أقسم بالدهر الذي يقع فيه حركات بني آدم، من خير وشر لأن فيه عبرة للناظر من مرور الليل والنهار على تقدير لا ينخرم؛ لما فيه من التنبيه بتصرف الأحوال وتبدلها، وما فيها من الدلالة على الصانع. فكأنه ﷻ أقسم على أن الدهر والعصر نعمة حاصلة لا عيب فيها، إنما الخاسر المعيب هو الإنسان؛ لأنه بمضي العصر ينتقص عمره، فإذا لم يكن في مقابلته كسب صار ذلك النقصان عن الخسران، ولذلك قال: لفي خسر[2].

= 6357-6358، بتصرف.

[1] انظر: قول ابن المعز، ص: 70 وما بعدها من هذا الكتاب.

[2] انظر: التفسير الكبير: للرازي، وتفسير زاد المسير: لابن الجوزي، وتفسير النكت والعيون: للماوردي، وتفسير ابن كثير.

وبنحوه عند الآلوسي في تفسيره قال: "وفي إضافة الخسران بعد قوله ﷻ: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ﴾ للإنسان إشعار بأنه صفة له لا للزمان، كما قيل:

يعيبون الزمان وليس فيه *** مَعَايِبُ غير أهل الزمان

وتعقب بأن استعمال العصر بذلك المعنى [أي الدهر] غير ظاهر"[1].

---

[1] قارن بقول الكافِيَجي: "وقيل المراد (ما خُلِقَ في الدهر) فأقسم بالعصر لفظا وجميع ما في الدهر معنى، [...] ثم لعل وجه القسم به على هذا التقدير كونه مشتملا على الدلالة على ألوهيته ووحدانيته باختلاف أصنافه المختلفة والمؤتلفة من الجواهر والأعراض على وجه الإتقان"، ثم قال: "إن في تخصيص القسم بالدهر –إشارة إلى نفي ما كانت العرب عليه– من إضافتهم ما ينزل بهم من النوائب والمكاره إلى الدهر وإحالة شقائهم وخسرانهم عليه وسببهم إياه؛ اعتقادا منهم أن الذي أصلبهم من ذلك هو فعل الدهر، [و] بإقسام الله ﷻ به، فإن ذلك دليل على شرفه، وإن ذلك ليس من صنعه، بل هو نعمة خالصة لا عيب فيها، وإن الشقاء والخسران إنما هو من معنًى في الإنسان لا لمعنًى في الزمان، ولذلك نهى النبي ﷺ عن سب الدهر كما ثبت في صحيح مسلم وغيره [من حديث أبي هريرة: لا تسبوا الدهر، فإن الله هو الدهر]" (ذخيرة القصر في تفسير سورة العصر، ص: 546–547، 554، بتصرف). وهذا القول تؤيده القراءة الشاذة المنسوبة لعلي ﷺ –وهي تقوم مقام القراءة التفسيرية–: "والعصر ونوائب الدهر"، وسيأتي ذكره بتمامه في ص: 115. وقال: "عليّ ﷺ: ليس الله هو الدهر تعالى عن ذلك لأن الدهر عرض وليس ربنا عرضا وإنما أراد فإن ما تنسبونه إلى الدهر إنما هو فعل الله ﷻ"، (المخصص: =

(قلت) في كلامه نظر إذ قال مالك: "من حلف ألا يكلم رجلا عصرا لم يكلمه سنة، ولو حلف ألا يكلمه العصر لم يكلمه أبدا؛ لأن العصر هو الدهر"[1].

والقول الثاني: أنه (العشي) روي عن الحسن وقتادة وهو أشهر إطلاق للفظ العصر عند ابن عطية والطاهر بن عاشور، وهو ما بين زوال الشمس وغروبها، أي: وقت صلاة العصر[2]، وعن قتادة: هي آخر ساعة من ساعات النهار، وخصه بالقسم لأن فيه خواتيم الأعمال[3].

= لابن سيده (ت 458 هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط/1– 1996 م، 400/2).

[1] انظر: أحكام القرآن: لابن العربي المعافري المالكي، (تفسير سورة العصر).

[2] قيل: "إنه وقت صلاة العصر من النهار بقرينة وجود مواضع أخرى أقسم الله فيها بأول النهار كقوله تعالى: ﴿وَالضُّحَىٰ﴾ أو ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ﴾ [المدثر: 34]".

[3] انظر: تفسير النكت والعيون: للماوردي. (قلت): من ساعات النهار عند العرب الساعة الثانية مساء وتسمى العصر وهو الوقت في آخر النهار إلى احمرار الشمس، والساعة الخامسة مساء وتسمى العشي وهو ما بين زوال الشمس إلى وقت غروبها. هذا وحكى مكي بن أبي طالب (ت 437 هـ) في تفسيره (الهداية إلى بلوغ النهاية) عن قتادة قوله: "العصر ساعة من ساعات النهار"، ثم قال مكي: "يعني العشي"، ونحوه مروي عن ابن عباس، وذكره أيضا الكافِيَجي قال: "وقيل: المراد به ساعة من ساعات النهار، ونقله بعضهم عن قتادة. قلت [الكافِيَجي]: وهذا بعد أن ثبت استعماله لغة مرادا به هذا المعنى على الوجه الذي سنذكره يحتاج إلى نُعْيَانِ [أي ذكر وإشهار] كونه المراد هنا دون غيره=

ويحتمل **قولا ثالثا:** أنه أراد (عصر الرسول ﷺ)[1]؛ لفضله بتجديد النبوة فيه، وجوز ابن عطية وتبعه الطاهر بن عاشور أنه يراد به عصر الإسلام كله[2]، "وهو خاتمة عصور الأديان لهذا العالم وقد مثل النبيء ﷺ عصر الأمة الإسلامية بالنسبة إلى عصر اليهود وعصر النصارى بما بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس بقوله ﷺ: «مثل المسلمين واليهود والنصارى كمثل رجل استأجر أجراء يعملون له يوما إلى الليل فعملت اليهود إلى نصف النهار ثم قالوا: لا حاجة لنا إلى أجرك وما عملنا باطل، واستأجر

= من المرادات المحتملة، وما يوجب ذلك غير ظاهر فيما يظهر" (ذخيرة القصر في تفسير سورة العصر، ص: 548، 550، بتصرف بسيط).

[1] ويرى المفسر الشيعي الطباطبائي في تفسيره (الميزان) أن "الأنسب لما تتضمنه الآيتان التاليتان من شمول الخسران للعالم الإنساني إلا لمن اتبع الحق وصبر عليه وهم المؤمنون الصالحون عملا، أن يكون المراد بالعصر عصر النبي ﷺ وهو عصر طلوع الإسلام على المجتمع البشري وظهور الحق على الباطل".

[2] قالت الباحثة يسرى أحمد اليبرودي (قسم الفقه وأصوله، كلية الشريعة، الجامعة الأردنية): "إنَّ تخصيص (العصر) بعصر الاسلام لا دليل عليه؛ وسياق الآيات لم يرد فيه تخصيص لهذا المعنى، والذي أراه أن يكون معنى (العصر) على إطلاقه أي إنه الوقت في أي زمان كان، سواء أكان في وقت العصر إلى الغروب، أم في وقت صلاة العصر، أم في عصر النبي ﷺ، أو في وقت الليل والنهار في أحد الأقوال"، (مقال: سنة الله في خلقه كما تصورها سورة العصر، مجلة دراسات، علوم الشريعة والقانون، مج: 45، ع: 3، س: 2018، ص: 39).

آخرين بعدهم فقال: أكملوا بقية يومكم ولكم الذي شرطت لهم، فعملوا حتى إذا كان حين صلاة العصر قالوا: لك ما عملنا باطل ولك الأجر الذي جعلت لنا، واستأجر قوما أن يعملوا بقية يومهم فعملوا حتى غابت الشمس، واستكملوا أجر الفريقين كليهما فأنتم هم»[1]. ومناسبة القسم بالعصر؛ لغرض السورة على إرادة عصر الإسلام ظاهرة؛ فإنها بينت حال الناس في عصر الإسلام بين من كفر به ومن آمن، لقوله ﷻ: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: 85]"[2].

وفيه قول رابع: أنه أراد (صلاة العصر)، وهي الصلاة الوسطى وينسب لمقاتل[3] وهو من باب حمل اللفظ على دلالته الشرعية –وهو ما

---

[1] لم أقف عليه بهذا اللفظ، والحديث أخرجه البخاري في صحيحه عن أبي موسى الأشعري بلفظ قريب منه.

[2] انظر: تفسير التحرير والتنوير، بتصرف. وقارن بقول ابن برجان في تفسيره: "وربما كان قسما بمدة أمة محمد ﷺ من يوم الدهر، فإن مدتها من يوم من أيام الدهر بمقدار وقت العصر من هذه الأيام إلى الليل".

[3] قال الحفناوي في رحاب تفسير سورة العصر (ص: 812): "لا يخفى بُعده، إذ لا صلة ظاهرة بصلاة العصر والمقسم عليه، كما في هذا الوجه من حذف المضاف (صلاة) دون توفر قرينة على الحذف، أو استدعاء يلزم السياق للحذف، ففيه من التكلف البين". كما "أن العلماء حينما تعرضوا لقول الله ﷻ: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ [البقرة: 238] كانوا مختلفين هل الصلاة الوسطى هي الظهر أم العصر أم المغرب =

عليه جماهير أهل العلم من السلف والخلف-؛ لأنها أفضل الصلوات؛ لأن بها يحصل ختم طاعات النهار، كما أن التكليف في أدائها أشق لتهافت الناس في تجاراتهم ومكاسبهم آخر النهار واشتغالهم بمعايشهم.

وقد أورد الرازي على هذا صلاة العصر فِعْلُنَا فكيف وقع القسم بها؟ وأجاب بأن القسم بها ليس من حيث إنها فِعْلُنَا، بل من حيث إنها أمر شريف تعبدنا الله به، وهو سبحانه يشرف ما شاء بما شاء، نعم![1].

القول الخامس: العصر: "اليوم والليلة" به قال أبو حيان في البحر، وبنحوه قال القرطبي في الجامع؛ أي: العصر: "الليل والنهار"، واستدلا ببيت للشاعر المخضرم أبو المثنى حميد بن ثور الهلالي (ت 30 هـ تقريبا):

"ولن يلبث العصران يوم وليلة *** إذا طلبا أن يدركا ما تيمما"[2].

= أم العشاء أم الفجر؟... قالوا: عندما نقول: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ فلا يتصور أن يكون شيء وسطا إلا إذا كان هناك طرفان، فما هو تحديد الطرفين الذي على ضوئه سنحدد الوسط؟". (وانظر: تفسير جزء عم للشعراوي، ص: 521-522، بتصرف يسير).

[1] انظر: تفسير الرازي، وقارن: بذخيرة القصر في تفسير سورة العصر، ص: 546.

[2] قال الكافِيَجي: "والصواب على هذا أن يقال: الليل أو النهار، فتأمله، والأولى في توجيه هذا القول أن يقال: العصر قد يكون بمعنى الدهر، وقد ذهب ثعلب في أماليه إلى أن الدهر الزمان الليل والنهار لا غير ذلك". (ذخيرة القصر في تفسير سورة العصر، =

والقول السادس: المراد بالعصر (أحد طرفي النهار)؛ أي: العصر بكرة، والعصر عشية، وهما (الأبردان).

فعلى هذا والقول قبله يكون القسم بواحد منهما غير معين.

القول السابع: ذكره الكافِيَجي قال: "وقيل: المراد به آخر عمر كل أحد حين يقصر بالفناء؛ لأن الأبد موقوف عليه ﷻ، ولا يخفى ما في هذا"[1].

وفي الترجيح بين هذه الأقوال قال محمد جواد مغنية: "اختلفوا: ما هو المراد بالعصر؟ وفي ذلك أقوال: الأول: أن الله سبحانه أقسم بصلاة العصر لا بالعصر نفسه، فهو من باب حذف المضاف. وإقامة المضاف إليه مقامه، أما الغرض من القسم بصلاة العصر فهو التنبيه على فضلها... وهذا بعيد عن الفهم العام. القول الثاني: أن المراد بالعصر عهد الرسول ﷺ، وهذا أبعد من الأول، القول الثالث: أن المراد به الطرف الأخير من النهار، وأنه تعالى أقسم بآخر النهار في هذه الآية... وهذا القول غير بعيد عن

= ص: 550). وبنحو ما صوبه الكافِيَجي قال الشوكاني في فتح القدير: "وَيُقَالُ لِلَّيْلِ: عَصْرٌ، وَلِلنَّهَارِ: عَصْرٌ، وَمِنْهُ قَوْلُ حميد بن ثور [المذكور آنفا]".

[1] ذخيرة القصر في تفسير سورة العصر، ص: 550. (قلت): وهذا وإن لم يعلم قائله فمعناه مبثوث في بعض التفاسير.

دلالة اللفظ، وأقرب منه القول الرابع: وهو أن المراد بالعصر الدهر؛ أي: الزمن الذي تقع فيه الحوادث والأفعال، والسياق يومئ إلى ذلك فإن قوله تعالى بلا فصل: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ يشعر بأن الخاسر هو الإنسان وليس الزمان لأنه لا يعد شيئا في نفسه يخسر أو يربح، ويذم أو يمدح!"[1].

وقال محمد أمين الشنقيطي: "والذي يظهر والله تعالى أعلم: أن أقرب هذه الأقوال كلها قولان: إما العموم بمعنى الدهر للقراءة الشاذة، إذ أقل درجاتها التفسير، ولأنه يشمل بعمومه بقية الأقوال.

وإما عصر الإنسان أي عمره ومدة حياته الذي هو محل الكسب والخسران لإشعار السياق، ولأنه يخص العبد في نفسه موعظة وانتفاعا.

ويرجح هذا المعنى ما يكتنف هذه السورة من سور التكاثر قبلها، والهمزة بعدها، إذ الأولى تذم هذا التلهي والتكاثر بالمال والولد، حتى زيارة المقابر بالموت، ومحل ذلك هو حياة الإنسان وسورة الهمزة في نفس المعنى تقريبا، في: ﴿الَّذِى جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُۥ ۝٢ يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُۥٓ أَخْلَدَهُۥ ۝٣﴾ [الهمزة: 2-3].

فجمع المال وتعداده في حياة الإنسان، وحياته محدودة، وليس مخلدا

---

[1] انظر: التفسير الكاشف، محمد جواد مغنية: 605/7، بتصرف بسيط.

في الدنيا، كما أن الإيمان وعمل الصالحات مرتبط بحياة الإنسان.

وعليه، فإما أن يكون المراد بالعصر في هذه السورة العموم لشموله الجميع وللقراءة الشاذة، وهذا أقواها.

وإما حياة الإنسان، لأنه ألزم له في عمله، وتكون كل الإطلاقات الأخرى من إطلاق الكل، وإرادة البعض، والله تعالى أعلم"[1].

ورجح ابن قيم الجوزية مستندا؛ إلى اللغة "القول الأول"، فقال في التبيان في أقسام القرآن –الفصل: السادس عشر–: "وأكثر المفسرين على أنه الدهر، وهذا هو الراجح[2]، وتسمية الدهر عصرا معروف في لغتهم"، واستشهد ببيت حميد المذكور آنفا[3]، وبنحوه عند عبد الحميد كشك في

---

[1] أضواء البيان للشنقيطي: 9/88–89.

[2] قال الحفناوي (في رحاب تفسير سورة العصر، ص: 813): "فأولى هذه الأقوال بحمل السياق التفسيري عليها، هو القول الأول، وهو أن المراد من العصر في النص الحكيم هو الدهر (زمن البشر مطلقا) فهو الأقوى حملا، حيث إن القسم بالزمان/ الدهر يتناسب تناسبا مباشرا مع الجواب". "خاصة إذا نظرنا إلى المعنى العام للسورة، فهي تعالج أسباب صلاح أي عصر دون استثناء، غير أن رجحان هذا المعنى لا يلغي المعاني الأخرى، فيمكن الجمع بينها"، (مفهوم الزمان في القرآن الكريم، لمحمد بن موسى بابا عمي، دار وحي القلم، دمشق– سوريا، ط/1– 2008 م، ص: 138).

[3] وذكر نحوه الكافِيَجي ثم قال معترضا: "وفيه نظر؛ لأن الظاهر أن مجموع يوم وليلة=

رحاب التفسير، وكذا ابن كثير وعلق قائلا بعد ذكره للقول الثاني: "والمشهور الأول"[1]، وهو الأولى عند الشوكاني في تفسيره، وهو الأصح عند العثيمين. وقال الشيرازي: "ومع أن التفاسير [المذكورة] غير متضادة، ويمكن أن تجتمع كلها في معنى الآية، ويكون القسم بكل هذه الأمور الهامة، ولكن الأنسب فيها هو القسم بالزمان وتاريخ البشرية، لأن القسم القرآني يتناسب مع الموضوع الذي أقسم الله من أجله"[2].

وكما لا يخفى فهذا اختلاف تنوع؛ إذ جلها أقوال متقاربة، وقد رجح ابن جرير الطبري العموم، فقال: "والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن ربنا أقسم بالعصر، والعصر اسم الدهر، وهو العشي، والليل والنهار، ولم يخصص مما شمله هذا الاسم معنى دون معنى، فكل ما لزمه هذا الاسم فداخل فيما أقسم به جل ثناؤه"[3]. وبنحوه عند النحاس في إعراب القرآن قال:

= بدل من العصر، أي بدل الكل من الكل، وهو إنما يقتضي أن يكون كل منهما عصرا كما ذكرناه آنفا، لا أن يقال مجموع الليالي والنُّهُر من حين خلق جنس الليل والنهار إلى حين إعدامه هو الدهر". (ذخيرة القصر في تفسير سورة العصر، ص: 552).

[1] موسوعة التفسير بالمأثور.

[2] ثم ذكر بعده احتمالا مرجوحا وهو عصر بعثة الرسول ﷺ، الأمثل: 403/15، بتصرف بسيط.

[3] يرى أمل محمد عبد الفراج علي راشد في كتابه: أسلوب القسم في سورة العصر (ص: 1106، بتصرف): "أن مبدأ التوسع في المعنى قد انتهجه كثير من السادة المفسرين، =

"ويدخل فيه كلّ ما يسمى بالعصر لأنه لم يقع اختصاص تقوم به حجة فالعصر الدهر، والعصر العشي، والعصر الملجأ"، وكذا عند الشوكاني في النشر قال: "فالعصر يطلق على كل واحد من هذه. ولا وجه لمن ذهب إلى تخصيص واحد منهما دون غيره"[1].

وقال الطاهر بن عاشور في تفسيره: "للعصر معان يتعين أن يكون المراد منها لا يعدو أن يكون حالة دالة على صفة من صفات الأفعال الربانية، يتعين إما بإضافته إلى ما يقدر، أو بالقرينة، أو بالعهد، وأيا ما كان المراد منه هنا فإن القسم به باعتبار أنه زمن يذكر بعظيم قدرة الله –تعالى– في خلق العالم وأحواله، وبأمور عظيمة مباركة مثل: الصلاة المخصوصة أو عصر معين مبارك... وهذه المعاني لا يفي باحتمالها غير لفظ العصر".

قال الشيرازي: "تتضح مما سبق عظمة آيات القرآن وسعة مفاهيمها.

= واعتمدوه سبيلا متبعا في توجيه معنى المفردة القرآنية من حيث الدلالة اللغوية، كما بدا هذا المبدأ عند الإمام الطبري هنا. وهذا الصنيع قد اعتبره الإمام محمد عبده في مقدمة تفسيره المنار هو صدارة المرتبة العليا في التفسير". و"الراجح من هذه التفاسير أن نقول: إن المراد الزمان كله أو بعضه، فالأقوال كلها ما عدا الرابع و[القول أنه ورب العصر على حذف المضاف]... يدخل بعضها في بعض...، وإن كان ذلك هو أظهر في المعنى الأول". (تفسير سورة العصر: لأبي مجاهد، ص: 34–35، بتصرف بسيط).

[1] النشر لفوائد سورة العصر: للشوكاني، ص: 44–45.

فكلمة واحدة تحمل من المعاني العميقة ما يجعلها صالحة لكل هذه التفاسير المتنوعة"[1]، فالأولى إذا حمل اللفظ على عمومه.

وقد ذكر الإمام الشعراوي هذه الأقوال كلها مرتبة ترتيبا منطقيا دقيقا محررا فقال: "وكلمة العصر إذا أطلقت أول إطلاق تنصرف عن المعنى اللغوي إلى المعنى الاصطلاحي، هذا المعنى الاصطلاحي هو العبادة المخصوصة في ذلك الوقت، فهذا أول ما يحضر في ذهن الإنسان.

وقد يُنتقل من العبادة المفروضة في الوقت الخاص، وهي بعد الظهر وقبل المغرب، إلى الزمن الذي فرضت فيه الصلاة؛ لأن اسمه العصر.

وقد يَنتقل الذهن إلى معنى أوسع من أن يكون العصر ليس هو الزمن المخصوص بين الظهر وبين المغرب، ولكنه مطلق طائفة محددة من الزمان لها مهمة مخصوصة، فمثلا يطلق العصر على النهار كله، ويطلق العصر على الليل كله بجامع أن هذا طائفة من الزمان لها خصوصية الضياء، وهذه طائفة من الزمان لها خصوصية الظلمة.

إذن فالعصر يطلق مرة على العبادة المفروضة، ومرة يطلق على زمن هذه العبادة وحدها، ومرة يطلق على طائفة من الزمن لها طابع خاص

---

[1] الأمثل: 403/15.

يحكمها كالنهار مثلا بما يجمعه من ضوء ونور، أو كالليل مثلا بما يجمعه من ظلمة.

وقد يطلق العصر ويراد به فترة أوسع من ذلك، بمعنى أنه زمان يشمل ليلا ونهارا، وقد يشمل أسابيع، وقد يشمل شهورًا، إلا أن هذا الزمن يحكمه طابع خاص في مقوماته.. في مشخصاته.. في أحواله.. في حضارته، كما نقول: عصر الجاهلية.. عصر فجر الإسلام.. العصر الأموي.. العصر العباسي.. العصر الحاضر الذي يبدأ من النهضة الحديثة.

إذن فالعصر متدرج في مفهوم معانيه..

المعنى الأول: العبادة.. **المعنى الثاني:** وقت هذه العبادة.. **المعنى الثالث:** الوقت الذي يجمعه طائفة طبيعة من الخصوصيات كالنهار أو كالليل.. أو يطلق العصر على طائفة من الزمان تعم ليلا ونهارا، ولكن لها طابع خاص يحكمها، هذا الطابع الخاص قد يكون طابعا سياسيا، أو تحضريا، أو علميًّا"[1].

ولقد رأينا لبعض المعاصرين[2] كلاما نفيسا ينتصر فيه للقول الثاني

---

[1] تفسير جزء عم: للشعراوي، ص: 520-521.

[2] (قلت): هو أبو عبد المعز بهذا الاسم تسجل بملتقى أهل التفسير عام 2003، وملتقى أهل اللغة عام 2008، حيث سجل على بطاقته تخصص علم اللغة، وظهر حساب =

بعد أن عرض قول عائشة بنت الشاطئ ثم دحضه[1]، وهو كلام طويل ننقله بتصرف:

"اعلم أن كلمة عصر (مطلقة من أي سياق) تحتمل أن تكون:

أولا: اسم ذات، ويتفرع على هذا الاحتمال تعيينان اثنان:

1- أن تكون الذات هي الزمن، وفي هذه الحالة أيضا تعيينان:

أ- أن يكون هذا الزمن خاصا (جزءا من النهار محصورا بين الزوال

= على ملتقى أهل الحديث ما بين 2003 و2008 باسم أبي عبد المعز، والطرفة التي رواها عن السلاويين في تفسيره البياني لسورة العصر توحي بأنه من أهل المغرب. تواصلت معه عبر ملتقى أهل التفسير؛ وسألته عن اسمه، فرد قائلا: "بالنسبة لاسمي فليس من المعاريف وليس لي مصنفات باسمي الخاص حتى يحال عليها... كل ما أخطه هو في صفحات بعض المنتديات وباسم الكنية التي تعرفونها". وقال عنه عز الدين كزابر في مدونته الإلكترونية: "هو أحد المشاركين النشطين بملتقى أهل التفسير، ويتضح بجلاء من مشاركاته الخبرة العميقة في المسائل الشرعية وأصول الدين، ويبدو أنه متخصص محترف، غير أني لم أقطع بشخصيته، وخاصة أنه لا يتجاوب في مشاركاته، ويبدو أنه يريد إبقاء شخصيته سرا، وله ما أراد"، ومن مقالاته: التفسير البياني: لسورة القارعة، والضحى، والأعلى.

[1] وسيأتي تفصيل ذلك في ص: 70، وما بعدها من هذا الكتاب.

والغروب)[1].

ب- أن يكون الزمن عاما ومبهما -كما تقول: (عصر الجليد) أو (عصر النهضة) ...-[2].

2- أن تكون الذات هي الصلاة (على تسمية المظروف بظرفه كما هو سائغ في اللسان العربي)[3].

وكل هذه المعاني مشهورة عند المفسرين.

ثانيا: اسم معنى.

ثالثا: صيغة المصدر أو الحدث كما تقول: (عصر الزيت) و(عصر العنب)، بيانه أن (العصر) -بمعناه المصدري الواسع- يتضمن دلالتين:

- **دلالة علاجية:** العصر كفعل علاجي هو ضغط على جسم صلب حاو لاستخلاص ما فيه من سائل أو غيره.

- **دلالة تقييمية:** إذ قد يرتبط هذا الفعل بمقصد تقييمي لنتائج

---

[1] ارجع إلى: القول الثاني، ص: 57.

[2] ارجع إلى: القول الثالث، ص: 58.

[3] ارجع إلى: القول الرابع، ص: 59.

العصر: فالعصارة جوهر نفيس للحفظ، وما عداها شوائب للطرح.

والسورة عند تأملها تدور حول هذا المعنى: الإنسان (يُعصر) ليتميز جوهره عن غثائه، والإنسانية (تُعصر) ليستبان مفلحها من خاسرها.

وهذا تقرير للتمثيل البياني: العصر يفترض –في مقوماته الدلالية العامة– أمرين:

1– فعلا حسيا هو ممارسة الضغط على شيء صلب فيكون القصد إلى استخراج السائل الكامن فيه.

2– فعلا معنويا أو حكميا يتعلق بالتقويم أو التقدير؛ فالعصارة (أشرف) وما عداها (أخس)، فيكون العصر آلية للتمييز تفضي إلى تقسيم الواحد إلى اثنين: ما هو جوهري في الشيء فيجب الاحتفاظ به والاحتفاء به، وما هو من الشوائب فيجب طرحه ونبذه.

فالملاءمة بين المقسم به والمقسم عليه بيانية كما ترى، هذا مذهب عائشة عبد الرحمن[1]، فإن إشارة الاستاذة إلى المعنى المصدري كانت مترتبة

[1] قالت عائشة بنت الشاطئ: "المعنى الأصلي للعصر لغة: الضغط لاستخلاص العصارة... ومن هذه الدلالة اللغوية الأصلية على الضغط والاعتصار، سُمي الدهر عصرا، بملحظ من استخلاصه عصارة الإنسان بالضغط والتجربة والمعاناة والابتلاء...=

عن إسناد وظيفة بيانية –جمالية– للقسم يقتضيها قانون الاتساق والتشاكل، وترى الأستاذة أن جل المفسرين انساقوا وراء استكناه واستقراء معاني التعظيم وأهملوا في المقابل الكشف عن أسرار التلاؤم بين القسم وموضوعه[1].

وبصرف النظر عن صحة ثبوت هذه الأصالة أو عدمها، فإن الخصائص الأسلوبية العامة للقرآن أو ما يسميه المفسرون (عادة القرآن)، تعكر على هذا التوجيه؛ فليس من عادة القرآن القسم بالمصادر وإنما يطرد فيه القسم بأسماء الذوات، سواء أكانت هذه الذوات من عالم الشهادة أم من عالم الغيب، وسواء أكانت دلالاتها قطعية أم احتمالية.

ثم من عادة القرآن القسم بالزمن وأجزائه من الليل والنهار والفجر والضحى، فيكون القسم بالعصر متسقا مع هذه المعاني، فلا جرم أن يكون العصر مرادا به الذات لا المصدر.

والمختار أن يكون القسم بجزء الزمن، مستأنسين في هذا الاختيار بأمرين:

أولا: موقع القَسَم على المحور العمودي، بوضع (العصر) ضمن

= وبهذا اللفت الموجه إلى ضغطة العصر ابتلاء، تأتي الآية بعده: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾" (التفسير البياني للقرآن الكريم: 75/2، 80، بتصرف).

[1] ارجع إلى ص: 47، الهامش رقم: 1.

جملة الأقسام الأخرى التي افتتحت بها بعض السور المكية.

إذ احتل (الزمن) مكانة متميزة بين الأقسام الاستهلالية، فرب العزة أقسم بكل مراحل الوحدة الزمنية: فقد أقسم بالفجر: ﴿وَالْفَجْرِ﴾ [الفجر: 1]، وأقسم بالليل: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾ [الليل: 1]، وأقسم بالضحى: ﴿وَالضُّحَى﴾ [الضحى: 1]، وأقسم بالعصر: ﴿وَالْعَصْرِ﴾ [العصر: 1].

وجاءت هذه الأقسام لاستغراق الزمن كله بالتنبيه على متفصلاته ومنعرجاته الأساسية: فالفجر بداية، والليل نهاية، والضحى نهاية البداية، والعَصْرُ بداية النهاية.

فالعَصْرُ: العَشِيُّ إلى احْمِرارِ الشَّمْسِ، يمثل بداية نزول الشمس نحو المغيب وتغير لون الأشعة نحو الاصفرار ثم الاحمرار.

والزمن المقسم به في هذه السور مرتبط بحياة الإنسان وسيرورته، بحيث يؤذن تحول الزمن وتغير موضع الشمس في السماء بتحول وتغير في نشاط الإنسان وبرنامج عمله، ومن ثم كانت الصلاة موقوتة بحسب منعرجات الزمن مما يكشف عن تناغم بديع بين الإنسان والطبيعة.

وللمعنى نفسه جاء تعدد أجزاء النهار واختلافها: فجر/ ضحى/ عصر في موازاة مع تعدد أنشطة الإنسان واختلافها في النهار، بينما الليل

لم يقع فيه تقسيم فجاء لفظا عاما واحدا (الليل) لقلة نشاط الإنسان فيه، فهو سبات ونوم في الغالب، لا يحتاج معه إلى تمييز.

ثانيا: وظيفة القَسَم على المحور الأفقي، بملاحظة علاقة (العصر) بما تضمنته السورة من معان وأحكام.

إن وقت العصر مناسب بيانيا لموضوع السورة لذلك اختاره العليم الحكيم قسما في مطلعها، فالسورة يغلب عليها طابع الإنذار.

فهو بداية النهاية، فالشمس التي كانت تتوسط السماء في كامل قوتها هي الآن تضعف وتتجه في مسارها إلى مغيبها في نهاية الأفق، فالعصر حاك عن الرحيل، ويبدأ الإنسان عندئذ في التفكير في الرواح"[1].

---

[1] تفسير بياني لسورة العصر: لأبي عبد المعز، بتصرف. وقارن بقول الكبيسي: "يُقسِمُ الله تعالى بوقت العصر، وهو الوقت المعروف بين انتهاء وقت الظهر إلى غروب الشمس، وهو الوقت الذي يتهيَّأ الناس فيه للانتهاء مِن أعمالهم والتوجُه إلى سكَنهم وراحَتهم، فهو بين وقت العمل ووقت الخلود إلى النوم، وهو الوقت الأنسَب للزيارات، وتوطيد العلاقات، ومِن ثَمَّ كان مُناسِبًا للتذكير بالتواصِي والتناصُح بالحقّ وبالصبر" (مجالس النور: 1941/4). "وقيل: لأن العصر يأتي في آخر النهار، وفيه يكون الناس مشغولين بأعمالهم، وربما يكون عندهم بعض الأشياء من العمل فيريدون أن يتموه فيغلبهم الوقت، فالحق ﷻ أكد به. وأيضًا لأن العصر هو وقت الحصيلة النهائية في حساب الإنسان على عمله اليومي، أهو أداه بما يؤدي له نفعا؟ أهو شغل الوقت بما يعود عليه=

= بالخير؟ أم هو قد بدد الوقت؟ فوقت العصر هو وقت الحساب عن اليوم، وما دام هو وقت الحساب عن اليوم فيناسب أن الحق ﷻ يقول: ﴿وَالْعَصْرِ﴾، أي: الذي تحاسبون فيه أنفسكم عما قدمتم من حصيلة عمل في ذلك الوقت، فإن كنتم عملتم عملا ينفعكم فستسرون، وإن كنتم قد بددتم ذلك اليوم فسيكون في هذا الوقت ندم على أن الإنسان قد فوت جزءًا كبيرًا من الزمن لم يشغله بما ينفعه... أو أن يكون ذلك شائعا في الطائفة الكبيرة من الزمن التي تتسم بخصوصية؛ فالعصور التي عاصرها الإنسان على هذه الحياة عصور مختلفة، وكل عصر له بداية وله نهاية، حضارات قامت.. أمم قامت.. دول حكمت وبعد ذلك انتهت، فنقول: قيامها يدل على أن فيها مقومات الوجود، وفناؤها وانهيارها يدل على أنها حملت بعد ذلك مقومات الفناء، فلو أن مقومات الوجود في أي عصر ظلت فيه رتيبة لما انتهى ذلك العصر... ذلك لأن مقومات وجوده كانت نشطة في أول الأمر، وبعد ذلك غفل الناس عنها أو تشاغلوا، فحملت مقومات فنائها فتدمرت... لأنه لا يستقيم ولا يستقر أي عصر من العصور بمقوماته إلا إذا حافظ على ما يأتي... عقيدة يترجم عنها إيمان، وبعد ذلك عمل على وفق تلك العقيدة، ثم بعد ذلك تواصٍ بالحق لتظل هذه العقيدة ثابتة، وتظل هذه الأعمال الخاضعة للعقيدة ثابتة، وبعد ذلك عقبات تعترضها، فلا بد من التواصي بالصبر. كل حركة في الحياة لا تحكمها هذه العناصر حركة مآلها إلى الخسران.. مآلها إلى الزوال.. مآلها إلى أنها لا تُعمر في الوجود أبدًا.. مآلها أنها تفنى... إذن فكل عمل يراد به أن يكون ناجحا، وأن يكون باقيًا لابد أن تستكمل فيه هذه العناصر: عناصر الإيمان بالمبدأ.. عناصر العمل.. عناصر التواصي بالحق.. عناصر التواصي بالصبر. إذن فالحق ﷻ يقول: استقرئ التاريخ، وانظر إلى العصور، وانظر إلى الحضارات التي تقدمتك، فبدراستك لهذه العصور ترى أنه لا يزدهر ولا يبقى إلا المبدأ، هذا المبدأ يعيش على عقيدة ويترجم إلى عمل، ويتواصى فيه بالحق، ويتواصى فيه بالصبر... إذن فالحق ﷻ يطلب منا أن نعرض لواقع التاريخ=

تحرير محل النزاع: إن "كلمة العصر في اللغة من المشترك اللفظي الذي يستخدم لعدة معان ولهذا اختلف السلف وأهل اللغة في تعيين المراد بكلمة العصر في الآية، واستعمال كلمة العصر بمعنى الدهر أو العشي معروفٌ في لغة العرب كما سبق بيانه، وقد جمع ابن المنير بين المعنيين وذكر احتمال الآية لكليهما قال:

"والعصر للدهر وللعشي *** كلاهما قد صح في المروي".

وتخصيص بعض الأحوال التي تتأتى على معنى أي منهما لا يعني انتفاء احتمال الآية للمعنى الأعم بل فيه زيادة تأكيد على فضل المخصوص وشرفه.

لكن القول بأنه الدهر يشمل الأوقات كلها، وهو قول عام يجمع جميع ما سبق من الأقوال، لعموم لفظ العصر لجميع الأوقات، هو الراجح، لذا رجحه الطبري وغيره من المفسرين كابن كثير.

وفي الجمع بين الأقوال مزيد فائدة –والله أعلم–، ففيه إشارة إلى أن

= في الأرض، ولواقع الحضارات، ولواقع العصور بكل مميزاتها؛ لنتأكد من أن المبدأ الذي أطلقه الحق ﷻ في قوله: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ صحيحا". (تفسير جزء عم: للشعراوي، ص: 524–528، بتصرف).

الزمان وإن قصر في ساعة من نهار أو يوم وليلة، أو طال في معنى (الدهر) لا يصلح إلا بتعميره باتباع النبي ﷺ ومن ذلك صلاة العصر"[1].

❁ قوله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢﴾

هو جواب القسم المقسم عليه.

و﴿ٱلْإِنسَـٰنَ﴾ معناه لغة: واحد الناس.

وقيل: "سمي إنسان؛ لأنه يأنس بجنسه؛ لأنه خلق خلقه لا قوام له إلا بإنس بعضهم ببعض، ولهذا قيل: الإنسان مدني بالطبع، من حيث لا قوام لبعضهم إلا ببعض، ولا يمكنه أن يقوم بجميع أسبابه".

وقيل: "سمي بذلك؛ لأنه يأنس بكل ما يألفه".

وقال ابن قتيبة: "سمي الإنس إنسا؛ لظهورهم، وإدراك البصر إياهم. قال الله ﷻ: ﴿إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا﴾ [طه: 10]؛ أي: أبصرت".

---

[1] مجلس مذاكرة تفسير سورة العصر منقول بتصرف عن موقع: (معهد آفاق التيسير للتعليم عن بعد)، وهو ما ذهب إليه أد. محمد أمين أبو شهبة، بعد استعراضه هذه الآراء في دلالة لفظ العصر فقال: "إن حمل دلالة العصر على معنى الزمن أو الدهر أرجح وأبر رحما بالسورة، لأن الأولى بألفاظ القرآن أن تحمل على أوسع مدلولاتها، إلا إذا وجد ما يرجح اختصاصها بغيره" (سورة العصر دراسة في المناسبات والسمات، ص: 6369).

وقد روي عن ابن عباس أنه قال: "إنما سمي الإنسان إنسانا لأنه عهد الله إليه فنسي". وذهب إلى هذا قوم من المفسرين من أهل اللغة[1].

والإنسان ها هنا فيه وجهان:

أحدهما: اللام في الإنسان –لام تعريف الجنس الشامل–، المراد به الاستغراق؛ ليعم جميع اسم جنس الإنسان[2] المؤمن والكافر بقرينة الاستثناء، وبنحوه قال: الآلوسي، والمراغي، والشعراوي[3]، والشوكاني وهو أولى الأقوال

---

[1] قارن بمادة (إنس) في: مفردات غريب القرآن: للراغب الأصفهاني، وبباب الإنسان في نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر: لابن الجوزي.

[2] ويرى مكي بن أبي طالب أن المراد بالإنسان هنا جميع "الناس إلا النبيين" (العمدة في غريب القرآن، شرح وتعليق: يوسف عبد الرحمن المرعشلي، مؤسسة الرسالة، ط/1– 1981 م، ص: 356). ولا حاجة لاستثناء النبيين لأنهم داخلون في المستثنى بتحقيقهم الوصف المذكور في قول الله ﷻ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلۡحَقِّ وَتَوَاصَوۡاْ بِٱلصَّبۡرِ﴾ وأما تخصيص الإنسان بالكافر، أو بكافر معين، وحمل الاستثناء مع ذلك على الانقطاع [نقله زكرياء الأنصاري في إعراب القرآن المنسوب إليه]، فلا دليل صحيح عليه ومخالف لما عليه جمهور المفسرين وأهل اللغة. والكافر داخل في عموم الآية، ويتحقق فيه معنى الخسارة الكاملة (مجلس مذاكرة تفسير سورة العصر منقول بتصرف).

[3] "قيل: هذا الإنسان مرة يطلق ويراد به الحقيقة، ومرة يطلق ويراد به الجنس، ومرة يطلق ويراد به فرد من الأفراد، ومرة يطلق ويراد به كل الأفراد، فما الذي يتحكم في إرادة=

عنده، وهو الراجح عند كل من الزحيلي [في تفسيره المنير]، والشنقيطي والعثيمين وقال: "وعلامة الإنسان الذي يراد به العموم أن يحل محل (ال) كلمة (كل) فهنا لو قيل: (كل إنسان في خسر) لكان هذا هو المعنى"، وقال الكافِيَجي: "وهذا قول الجمهور"، ثم قال: "ومشى على هذا كثير، وهو الأوجه؛ لصلاحية اللفظ لإرادة ذلك منه؛ وعدم نبو المعنى عنه؛ وإبقاء الاستثناء على

= معنى من المعاني؟ قيل: الاستثناء؛ فعندما يقول مثلا: ﴿وَٱلۡعَصۡرِ ۝١ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾.. فقد استثنى جماعة، فالذين آمنوا جماعة استثناهم من الإنسان، فالإنسان لا يراد به الفرد، ولا يراد به الحقيقة في ذاتها، وإنما يراد به الحقيقة في كل فرد من أفرادها، فكأنه قال: كل أفراد الإنسان، ويسمونها ("ال" الاستغراقية)، أي: تشمل كل الأفراد. والذي دلنا على أن "ال" استغراقية تشمل كل الأفراد، أن الذي استثني منها ليس فردًا، وإنما استثني منها جماعة، ولا يمكن أن تستثنى الجماعة إلا من جماعة أكثر منها، فكأن قول الحق ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾، أي: كل إنسان.. جميع الأفراد في خسر ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾. إذن فلفظة: "ال" في كلمة ﴿ٱلۡإِنسَٰنَ﴾ دلت على أن المراد هنا الاستغراق، الاستغراق الحقيقي لكل الأفراد، أي: القضية لم يشذ عنها فرد من الأفراد سواء كان فردا في نفسه، أو فردًا في أسرته، أو فردا في أمته، أو في المجتمع، والدليل على ذلك أن الاستثناء جاء من كلمة "إنسان"، فإنسان مستثنى منه، والمستثنى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وهم جماعة، ولا يمكن أن تستثنى الجماعة من فرد، فلابد أن تستثنى الجماعة من جماعة أوسع دائرة منها" (تفسير جزء عم: للشعراوي، ص: 528-529).

أصله من الاتصال مع انتفاء المانع"[1].

يقول ابن المنير:

وكل إنسان ففي خسار *** غير ذوي الصلاح والأبرار

إشكال والجواب عليه: "بناء على هذا الترجيح في معنى الإنسان، استشكل دخول المؤمن مع الكافر في حيز التعريف الإنساني.

فالخسران في حق الكافر معلوم، معقول، محقق، فكيف يصح حمل الخسران في جانب المؤمن/ غير الكافر؟

أجيب على هذا: في غير الكافر وفي عموم المسلمين، فالخسران بمعنى التفريط، بحيث لو دخل الجنة بعد عذاب، أو لم ينل أعلى الدرجات يحس بالخسران في الوقت الذي فرط فيه ولم ينافس فعل الخير لينال أعلى الدرجات.

فهذا الخسر متفاوت، فأعظمه الخسر المنجر عن انتفاء الإيمان بوحدانية الله وصدق رسوله ﷺ، ثم تتفاوت مراتب الخسر بعد ذلك بحسب

---

[1] انظر: التفسير المنير: للزحيلي، وتفسير المراغي، وذخيرة القصر في تفسير سورة لعصر: للكافيجي، ص: 558-559، بتصرف بسيط).

كثرة الأعمال السيئة ظاهرها وباطنها"[1].

والثاني: اللام في الإنسان (لام عهد) لمعهود معين لدى المخاطب ذكريا في النص أو ذهنيا مفهوما من حال السياق، والمراد هنا الذهني، إذ ليس في النص مذكورا باسمه أو بصفته، فيفهم من فحوى السياق أن الكلمة تصدق على شخص بعينه. وعليه اختلف القائلون بهذا القول في تعيين المبهم، أن المراد بالإنسان الكافر من دون تعيين شخص معين، وقيل: بالتنصيص على "شخص معين ويراد به جماعة من المشركين: الوليد ابن المغيرة، والعاص بن وائل، والأسود بن عبد المطلب بن أسد بن عبد العزى، والأسود ابن عبد يغوث"، وقيل: نزلت في أبي لهب واسمه عبد العزى ابن عبد المطلب[2]، وقيل في أبي جهل بن هشام[3]، ولم يصح فيها سبب نزول، وكل هذا المُعين –في الحقيقة– مثُل، إذ المقصود جنس الكافر المعاند للنبي

---

[1] في رحاب تفسير سورة العصر: للحفناوي مدرس التفسير وعلوم القرآن بكلية الدراسات الإسلامية والعربية بنين بدسوق، ص: 819.

[2] انظر: تفسير مقاتل بن سليمان، والتفسير الكبير: للرازي.

[3] رواه مرفوعا أبي بن كعب، وسيأتي الحديث بتمامه في فرائد التفسير ونكته، ص: 113. و"لا يعد من سبب النزول ما ورد من روايات في المقصود بالإنسان في قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَفِي خُسۡرٍ﴾ هو أبو جهل، وقيل أبو لهب، وقيل غير ذلك ولكن هذه المرويات لا تعدو أن تكون تعيين المبهم لا يعد سبب نزول مطلقا، كما هو مقرر عند أهل الفن". (في رحاب تفسير سورة العصر: للحفناوي ص: 795–796، بتصرف بسيط).

بعصره الشريف، فهو من باب المصداق، الدخول الأولي ليس إلا.

الترجيح: و"الصواب ألا تعارض بين الوجهين، بل إن الوجه الأول أعم ويدخل فيه الوجه الثاني؛ فجنس الإنسان خاسر، ما لم يكن من المؤمنين، فبالتالي يخرج الكافرون من ذلك ويندرجون تحت قسم الخاسرين، ويندرج تحت قسم الكافرين ما ذكر من رؤوس المشركين كأبي لهب والعاص بن وائل وغيرهم"[1].

ومادة: "(خسر) معناها المحوري: نقص الشيء بذهاب أجزاء منه فقدًا؛ كنقص المَكِيلات [...] والموزونات [...]، وكنقص مال التاجر. [...] فالخسران في هذا وذاك. وسائر ما في القرآن من التركيب هو بمعنى فوت ما كان يمكن أن يفوز به من ثواب ونعيم لو آمن بالله واتبع شرعه"[2].

وقوله ﷻ: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ فيه ستة أوجه[3]:

---

[1] مجلس مذاكرة تفسير سورة العصر، منقول بتصرف عن موقع: (معهد آفاق التيسير للتعليم عن بعد).

[2] المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم: لمحمد حسن حسن جبل، ص: 556-557، بتصرف.

[3] قارن بتفسير: النكت والعيون: للماوردي، ونزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر: لابن الجوزي، باب: الخسران.

الوجه الأول: لفي نقص، ومنه قوله ﷻ: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ﴾ [الشعراء: 181]، أي: الناقصين في الكيل والوزن، وقوله ﷻ: ﴿وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: 3]، أي: ينقصون، ومأخذ الوجه: أصل اللفظ في اللغة.

والوجه الثاني: لفي هلاك، نقله القرطبي عن الأخفش.

وجمع بين الوجهين ابن كثير، فمن لازم حصول النقص حصول الهلاك، فالخسر: مصدر، والخسر والخسران في معنى واحد، فالخسران: النقص، ومعناه في التعارف هلاك رأس المال أو نقص جزء منه، وهو ضد الربح في التجارة، وينسب ذلك إلى الإنسان، فيقال: خسر فلان، وإلى الفعل فيقال: خسرت تجارته، قال ﷻ: ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ﴾ [النازعات: 12]، ويستعمل ذلك في المقتنيات الخارجة "كالمال والجاه" في الدنيا وهو الأكثر، وفي المقتنيات النفسية "كالصحة والسلامة، والعقل والإيمان، والثواب"، وهو الذي جعله الله ﷻ الخسران المبين، وقال: ﴿ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ أَلَا ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْخُسْرَانُ ٱلْمُبِينُ﴾ [الزمر: 15]، وقوله: ﴿وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [البقرة: 121][1].

---

[1] قارن بمادة (خسر) في: مفردات غريب القرآن: للراغب الأصفهاني. ومن اللافت للنظر "أنه قد تجلى من تراثنا العربي: اللغوي، والتفسيري على السواء أن ثمة إجماعا على أن=

والوجه الثالث: لفي عقوبة، ومنه قوله ﷻ: ﴿وَكَانَ عَاقِبَةُ أَمْرِهَا خُسْرًا﴾ [الطلاق: 9]، فالخسران هو نوع العقوبة الواقعة عليهم، قوله ﷻ: ﴿وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر: 65]، أي: في العقوبة، ومأخذ الوجه: تفسير الشيء بنتيجته.

والوجه الرابع: لفي شر، نقله القرطبي عن ابن زيد.

والوجه الخامس: لفي غبن بسوء تصرفه في نعم الله عليه، ومنه قوله ﷻ: ﴿إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَا ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ﴾ [الزمر: 15]؛ أي: غبنوا فصاروا إلى النار، ومأخذ الوجه:

= الخسر –في أشهر مدلولاته– بمعنى النقص،... والخسر يتلاقى مع النقص في إفادة نفس معناه، وارتسام مدلوله، إلا أن الخسر يختص بأن فيه مبالغة في تحقيق معنى النقص، وتنوع جهاته؛ إذ يدل في أصل معناه على إذهاب رأس المال بالكلية، ويسهم في تصوير هذا البعد مدلول: (الإهلاك)؛ إذ إن فيه إشعارا بكامل إذهابه وتلويحا بشدة الفقد، مع الإيحاء من وراء ظلاله بأنه لا سبيل لعودة المفقود؛ فكان أشد اتساقا مع المقام، وتناغما مع حال ما انصرم من الزمان؛ إذ إنه لا يعود أبدا. أما النقص فيفيد مجرد الاقتطاع، وأخذ جزء من كلٍ، مع بقاء أصل هذا الكل (المأخوذ منه)، مصورا أنه قد يبنى على هذا الكل حتى يزيده بعد نقصه، وينميه بعد زوال جزئه. كما أن التعبير بالخسر يرتبط بسعي الإنسان. كما أن مادة (خ س ر) فيها الجمع بين العمل والجزاء عليه" (أسلوب القسم في سورة العصر: لأمل محمد عبد الفراج علي راشد، ص: 1136 وما بعدها، بتصرف).

التفسير باللازم.

والوجه السادس: لفي ضلال، من تفسير المسبب بسببه، فسبب الخسران في الآخرة هو ما وقع فيه العبد من ضلال، ومنه قوله ﷻ: ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ وَمَنْ يَتَّخِذِ الشَّيْطَانَ وَلِيًّا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُبِينًا﴾ [النساء: 119]، ومأخذ الوجه: تفسير الشيء بسببه.

والمعنى في الوجوه الثلاثة [الأولى] متقارب كما قال القرطبي، ويؤيده قول الكافِيَجي عن الوجوه الخمس الأولى: "وهي متقاربة وبعضها واحد، والمقام لا ينبو عن شيء منها"[1].

والصحيح أن كل ذلك داخل في المعنى المراد كما ذكره ابن عبد الفتاح القارئ، وأمل محمد علي راشد، والحفناوي (في رحاب تفسير سورة العصر)، فكل الوجوه هي في حقيقتها مُثل متقاربة، اختلاف تنوع لأفراد فقط ...، والأولى حمل الكلمة على العموم، دون تقييدها بفرد من أفراد المعنى، لأنها استفاد العموم من تنكيرها، فأطلقت دون تعيين لتعم.

واختيار لفظ الخسارة من أحسن ما يكون، فهو لفظ يسترعي انتباه

---

[1] وقارن بقول الشنقيطي في أضواء البيان (89/9): "والخسر: قيل: هو الغبن، وقيل: النقص، وقيل: العقوبة، وقيل: الهلكة، والكل متقارب".

السامع، فالإنسان مجبول على محبة الربح والهرب من الخسارة، لذلك خاطب الله تعالى الناس بما يلفت انتباههم، وبما جبلت عليه فطرتهم.

وقد جاءت ألفاظ التجارة والخسران والربح والأجر في آيات متعددة في القرآن، لعظيم وقعها على النفس، فالإنسان مجبول على حب ما يلائمه والحرص على تحصيله، وكراهية ما يؤذيه والفرار منه واتخاذ وقاية منه.

والخسران استُعير هنا؛ لسوء العاقبة وسوء الحال، ولما استثنى منه الذين آمنوا وعملوا الصالحات بقي حكمه متحققا في غير المؤمنين، فيتقرر الحكم تاما في نفس السامع مبينا أن الناس فريقان: فريق يلحقه الخسران، وفريق لا يلحقه شيء منه.

ثم في الخسر تفسيران:

التفسير الأول: إذا حملنا الإنسان على الجنس الشامل المراد به الاستغراق ليعم جميع اسم جنس الإنسان، كان معنى الخسر (هلاك نفسه وعمره)، إلا المؤمن العامل فإنه ما هلك عمره وماله؛ لأنه اكتسب بهما سعادة أبدية.

التفسير الثاني: وإن حملنا لفظ الإنسان على الكافر، كان المراد (كونه في الضلالة والكفر) إلا من آمن من هؤلاء؛ فحينئذ يتخلص من ذلك

الخسار إلى الربح. وذلك بين غاية البيان في الكافر؛ لأنه خسر الدنيا والآخرة، وذلك هو الخسران المبين؛ وأما المؤمن وإن كان في خسر دنياه في هرمه وما يقاسيه من شقاء هذه الدار، فذلك معفو عنه في جنب فلاحه في الآخرة وربحه الذي لا يفنى، ومن كان في مدة عمره في التواصي بالحق والصبر والعمل بحسب الوصاة فلا خسر معه، وقد جمع له الخير كله.

والإنسان إذا لم يستعمل نفسه وعمره فيما يوجب له الربح الدائم، فهو في خسران؛ لأنه عمل في إهلاك نفسه وعمره، وهما أكبر رأس ماله. هذا معنى ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ يمر به العصر فيمضي عمره ولا يكتسب فإذا هو خاسر[1].

فمن قال إن المراد بالإنسان في الآية هو الكافر؛ قال بأن الخسارة هي العقوبة بذنوبه وهي دخول النار في الآخرة فيخسر أهله، ومنزله، وماله في الجنة، ومنهم من قال بأن الخسارة هي ما كانوا فيه من ضلال في الدنيا أكبهم الله بسببه في النار في الآخرة.

فيكون معنى الآية: كل كافر لفي ضلال حتى يموت فيه؛ فيدخل النار؛ فتكون خسارته في الآخرة.

---

[1] قارن بتفسير: زاد المسير: لابن الجوزي.

ومن قال بأن المراد بالإنسان في الآية هو جنس الإنسان؛ قال بعموم الخسارة في الدنيا والآخرة.

ولا تعارض بين القولين؛ فالقول الأول داخل في عموم القول الثاني، والكافر أحق بالخسارة من غيره، لكن القول بعموم الخسارة يناسب سياق الآيات من سورة العصر، وعموم ألفاظها.

ولفظ ﴿خُسْرٍ﴾ يشمل جميع ما يتعرض له الإنسان من نقصان وهلكة سواء كان هذا في الدنيا أو في الآخرة.

أما لماذا لم يقل ﷻ: "لفي الخسر" بالتعريف، وقال: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ بالتنكير؟ ففيه تأويلان:

التأويل الأول: لأن التنكير [للتعظيم في مقام التهويل تارة والتحقير أخرى[1]]، فإن حملنا على التهويل وهو التأويل الصحيح عند الرازي، كان المعنى (إن الإنسان الكافر لفي خسر عظيم لا يعلم كنهه إلا الله)، وتقريره أن الذنب يعظم بعظم من في حقه الذنب، أو لأنه وقع في مقابلة النعم العظيمة، وكلا الوجهين حاصلان في ذنب العبد في حق ربه، فلا جرم كان

[1] وممن حمله على أنه للتحقير الخطيب الشربيني في تفسيره: السراج المنير، والمعنى خسران الإنسان دون خسران الشيطان.

ذلك الذنب في غاية العظم.

واعلم أن الله ﷻ قرن بهذه الآية قرائن تدل على مبالغته ﷻ في بيان كون الإنسان في خسر وتؤكد هذه الجملة:

القرينة الأولى: القسم في قوله ﷻ: ﴿وَالْعَصْرِ﴾.[1]

والقرينة الثانية: كلمة ﴿إِنَّ﴾، فإنها للتأكيد.

والقرينة الثالثة: حرف اللام في ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾، وها هنا احتمالان:

---

[1] يقول الإمام محمد عبده –في تفسيره المطول لسورة: العصر– إنما ورد هذا القسم... تأكيدا للخبر الذي أراد الله أن يسوقه إلينا وهو أن الإنسان في خسر إلخ. وإنما احتاج هذا الخبر إلى التأكيد لأن كثيرا من الناس يظنون أن من الأحوال والأعمال وراء ما ذكر في هذه السورة ما لا خسار فيه بل يعتقدون أن السعادة في التخلص من عقد الإيمان، والعتق من قيود الفضائل، وانطلاق النفس فيما يسمونه متسع الفكر، وحرية العمل، دون تحرج من رذيلة، ولا إحجام عن فاحشة، متى كانت تلذ للنفس في العاجل، وإن أدت بها إلى الهلكة في الآجل، وإن من الأمم من يسعد وإن اتبع أفرادها أهواءهم، وملكتهم شهواتهم، ما داموا يكسبون المال ويوفرون على أنفسهم وسائل القوة في زعمهم سواء: آمنوا أم لم يؤمنوا، عملوا الصالحات أم لم يعملوا، تواصوا بالحق والصبر أم لم يتواصوا، وأمثال هؤلاء الظانين يفوق عددهم الحصر في كل زمان ومكان" (الأعمال الكاملة للإمام الشيخ محمد عبده، تقديم وتحقيق: د. محمد عمارة، دار الشروق، ط/1– 1993 م، 5/483–482، بتصرف بسيط).

الاحتمال الأول: في قوله ﷻ: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ أي: في طريق الخسر.

والاحتمال الثاني: أن الإنسان لا ينفك عن خسر؛ لأن الخسر هو تضييع رأس المال، ورأس ماله هو عمره، وهو قلما ينفك عن تضييع عمره؛ وذلك لأن كل ساعة تمر بالإنسان فإن كانت مصروفة إلى المعصية فلا شك في الخسران، وإن كانت مشغولة بالمباحات فالخسران أيضا حاصل؛ لأنه كما ذهب لم يبق منه أثر، مع أنه كان متمكنا من أن يعمل فيه عملا يبقى أثره دائما، وإن كانت مشغولة بالطاعات فإن ترك الأعلى منها والاقتصار بالأدنى نوع خسران، فثبت أن الإنسان لا ينفك البتة عن نوع خسران.

القرينة الرابعة: أتى بقوله: ﴿لَفِي خُسْرٍ﴾ ليكون أبلغ من قوله: (لخاسر)؛ وذلك أن (في) للظرفية، فكأن الإنسان منغمس ومغمور في الخسر، والخسران محيط به من كل جانب.

واعلم أن هذه الآية كالتنبيه على أن الأصل في الإنسان أن يكون في الخسران والخيبة، وتقريره أن سعادة الإنسان في حب الآخرة والإعراض عن الدنيا[1].

---

[1] قارن: بالتفسير الكبير: للرازي، وتفسير الطاهر بن عاشور، وتفسير العثيمين: جزء عم. وجاء في مجالس النور (1941/4): "﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِي خُسْرٍ﴾ هذا جواب القسَم، =

وأي خسران أعظم ممن خسر الدنيا والآخرة؟ فمن باع آخرته بدنياه فهو في غاية الخسران، بخلاف المؤمن، فإنه اشترى الآخرة بالدنيا؛ فربح وسعد.

والتأويل الثاني: أن يكون التنكير في قوله ﷻ: ﴿خُسْرٍ﴾ للتنويع؛ أي: نوع من الخسر غير ما يعرفه الإنسان[1]، والمعنى: إن الإنسان لفي خسران متعدد، خسران ما، لا يعرف كنهه، ولا يدرك عاقبته، إذ قد يظن لنفسه عاقبة حسنة، على حين أنه يتقلب في الخسران، وجوزه الآلوسي وتبعه الطاهر ابن عاشور، والشيخ إسماعيل حقي في تفسيره روح البيان.

ويحتمل **تأويلا ثالثا** وهو أن يكون "للتكثير ... فإن بعض المستثنين بالنسبة إلى بعض في نوع من الخسران؛ بسبب تفريطهم في بعض أعمالهم، حيث لم يعملها أولئك البعض وعملها الآخرون"، قاله الكافِيَجي[2].

قال المراغي في تفسير هذه الآية: "أعمال الإنسان هي مصدر

= وقد اجتمع في تأكيد معناه عِدَّة مؤكِّدات: أولها: القَسَمُ، وثانيها: حرف إنّ، وثالثها: (أل) التعريف، وهي للاستغراق؛ بمعنى أنَّها تُقيد العموم لكلِّ أفراد الإنسان إلَّا من استَثْنَتْهم السورة فيما بعد، ورابعها: حرف اللام في: ﴿لَفِي﴾ فهي للتأكيد أيضًا، واجتماع هذه المؤكِّدات تحفيزٌ للعاقل أن يُفكّر بجدّ في مصيره وعاقبة أمره، وسبيل خلاصه".

[1] وهذا القول قريب من الإبهام.

[2] ذخيرة القصر في تفسير سورة العصر، ص: 560، بتصرف بسيط.

شقائه، لا الزمان ولا المكان، وهي التي توقعه في الهلاك".

وقد قيل **بتأويل رابع** وهو الإبهام، كونه نوعا غير معهودات الناس من الخسران، فهو خسر غير مسبوق ولا معلوم[1].

وفي "تجريد الإنسان المحكوم عليه بالخسران من كل وصف: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ إشعارا بأن علة الخسران هي الإنسانية نفسها، فلو قيل مثلا: (إن الإنسان الكافر في خسر) لانتزع الذهن أن مناط الخسارة هي صفة الكفر، لكن الآية في تركيبها تشعر أن علة الخسارة كامنة في (الجوهر) الإنساني ذاته لا في (أعراضها) عكس النجاة المؤسسة على الأعراض.

الخسارة أصلية جوهرية، والنجاة فرعية عرضية، فتجرد ﴿ٱلْإِنسَٰنَ﴾ من كل قيد يشعر أن ماهية الإنسانية نفسها علة الخسران، وهناك العديد من الآيات التي تشير إلى تأصل عوامل الخسران في تركيبة الإنسان [...]، وهذه النصوص –القرآنية– متفقة على قدر الخسران للإنسان، والتعليل في الآيات من داخل الإنسان [...]، أو لنقل علة الخسارة في الآيات من الماهية.

والقوة البيانية للآية مبنية على إسقاطين:

---

[1] انظر: أسلوب القسم في سورة العصر: لأمل محمد عبد الفراج علي راشد، ص: 1144.

الأول: إسقاط التجارة على العبادة.

والمراد بالإسقاط بيان أمر متوسلين بأمر آخر، فتفهم العبادة مثلا من خلال التجارة على اعتبار أن مجال التجارة أكثر ألفة عند المتلقي وأوضح في ذهنه فتسقط عناصر هذا المجال على المجال الآخر، فالنجاة في الآخرة –مثلا– وهو أمر غيبي مستقبلي، يسقط عليها الربح في التجارة وهو أمر مشاهد آني، ومتكرر في التجربة الإنسانية، فيعبر عن الغيبي بالتجريبي وعن المعنوي بالحسي وعن النادر بالمألوف فينشأ عن ذلك مقصد البيان.

والأصل في الخسارة متجذر في المجال التجاري.

وإسقاط (استعارة) التجارة على الدين مألوف في القرآن[1].

والثاني: إسقاط الفضاء على المجرد.

فالتعبير بالظرفية في الآية: ﴿فِي خُسْرٍ﴾ إسقاط للمكان على المعنى،

---

[1] انظر قوله ﷻ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى فَمَا رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾ [البقرة: 16]، وقوله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ [فاطر: 29]، وقوله ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: 10]، وقوله ﷻ: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: 9].

فيتصور المتلقي الخسارة لا كحالة أو صفة بل كفضاء يتحرك فيه.

فالخسارة ليست في الإنسان بل إن الإنسان هو الذي في الخسارة.

وفائدة الإسقاط بيان الإحاطة وعدم الانفكاك.

والتعبير بـ: ﴿فِي﴾ يكسب الفضاء دلالة إيحائية انقباضية فهي دالة على الانغلاق والانحباس والاختناق، عكس (على) ذات الدلالة الانبساطية"[1].

فما المناسبة بين المقسم به والمقسم عليه؟ وكيف يستدل بالقسم بالعصر على صحة دعوى المقسم عليه، وهي كون الإنسان في خسر؟

والجواب: "أن القسم بالعصر باعتباره الدهر والزمان، وباعتباره حدث العصر، إنما هو شاهد على حقيقة قضية جواب القسم، فتحقق خسران الإنسان لا يتم الوقوف عليه إلا من خلال استقراء أحداث الزمان الممتد بتداول أيامه وتقلب أحواله، واستحضار نوائبه المسجلة في صفحات تاريخه، ألم يخبرنا الدهر عن حال الظالمين والفاسدين المفسدين وإهلاكهم، وهذا ما تظاهرت عليه آيات الذكر الحكيم فقال الحق سبحانه وتعالى في محكم آياته: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ

[1] تفسير بياني لسورة العصر: لأبي عبد المعز، بتصرف.

مُشْرِكِينَ﴾ [الروم: 42]. وعلى العكس تماما فقد آل الأمر بجملته إلى الموحدين، قال سبحانه فيما حدث عن موسى عليه السلام: ﴿قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: 128]. ولعل مما يؤيد ذلك القراءات التفسيرية الواردة عن علي بن أبي طالب: «والعصر ونوائب الدهر إن الإنسان لفي خسر وإنه فيه إلى آخر الدهر إلا الذين...»، وفي مصحف عبد الله: «والعصر لقد خلقنا الإنسان في خسر»[1]".[2]

---

[1] وسيأتي تخريجه في ص: 115.

[2] انظر: أسلوب القسم في سورة العصر: لأمل محمد عبد الفراج علي راشد، ص: 1146 وما بعدها، بتصرف.

✍ طريق النجاة الوحيد ومنهج السعادة أربع صفات للفئة الرابحة

۞ قوله ﷻ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾

قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ﴾ في محل نصب على الاستثناء[1] من موجب آمَنُوا -أي الإنسان الخاسر- والجملة صلته، فهو استثناء متصل، إذ هو بمعنى الجماعة (الناس) على الصحيح[2]، وقال الشوكاني: "ويدخل تحت هذا الاستثناء كل مؤمن ومؤمنة، ولا وجه لما قيل من أن المراد الصحابة أو بعضهم[3]، فإن اللفظ عام لا يخرج عنه أحد ممن يتصف بالإيمان والعمل الصالح".

---

(1) قال الحاكمي في تفسيره: "والمعنى: الكفار في خسار وهلاك إلا الذين آمنوا بالله ورسله وعملوا صالحا.

ويقال: كيف استثنى أهل الربح من الخسران، ولم يستثن أهل الخسران من الربح؟

والجواب: أنَّ هذه الآية نزلت بقرب من مبعث رسول الله، والقوم إذ ذاك بأجمعهم كانوا ضلالا كفارا، والمؤمنون قليل، واستثناء القليل من الكثير معروف" (تخليص الدرر: لعبد الحكيم بن عبد المجيد الحاكمي -ت 514 هـ-، تحقيق أ. د. أحمد بن فارس السلوم، دار ابن حزم، بيروت - لبنان، ط/1-2022 م: 4/473-474).

(2) انظر: إعراب القرآن: للنحاس، وتفسير جامع أحكام القرآن: للقرطبي، وتفسير فتح القدير: للشوكاني.

(3) القائل: هو أبي بن كعب، وسيأتي الحديث بتمامه في: فرائد التفسير ونكته، ص: 113.

وقال أيضا: "ومن قال[1]: إن المراد بالإنسان الكافر فقط فيكون [الاستثناء] منقطعا" بمعنى لكن.

فالربح و"النجاة الممكنة التي بشر بها الاستثناء مقيدة الآن بكثير من الشروط:

- ﴿آمَنُوا﴾.
- ﴿عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾.
- ﴿تَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾.
- ﴿تَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾.

النجاة ممكنة ولكنها عزيزة"[2].

والإيمان في اللغة: (التصديق)، ويستعمل تارة اسما للشريعة التي جاء بها محمّد ﷺ [...]، ويوصف به كلّ من دخل في شريعته مقرًّا بالله وبنبوته [...]. وتارة يستعمل على سبيل المدح، ويراد به إذعان النفس للحق على سبيل التصديق، وذلك باجتماع ثلاثة أشياء: القول باللسان، والإخلاص

---

[1] القائل: هو أبي بن كعب، وسيأتي الحديث بتمامه في: فرائد التفسير ونكته، ص: 113.

[2] تفسير بياني لسورة العصر: لأبي عبد المعز، بتصرف.

بالقلب، والعمل بالجوارح[1]، والمراد به هنا: صدقوا الله ورسوله.

"فاعلم أن الإيمان أصله الأمن. والإيمان يستعمل لغة على وجوه: فنقول آمنه: أي أعطاه أمنا ...، وآمن له: أي صدقه، واعتمد عليه. وآمن به: أيقن به. وكل هذا جاء في القرآن... ثم هو اصطلاح ديني قديم... ومنه: (آمين) كلمة تصديق.

فالمؤمن في اصطلاح القرآن: هو العابد لله، الذي حقق عبوديته بالإيقان بآياته، والإذعان لأحكامه محبة ورضى.

فبعد هذا[2] لا يبهم عليك ما جاء في القرآن من ذكر العمل الصالح بعد الإيمان. فإنما هو تفصيل وتوضيح من قسم عطف الخاص على العام.

وضرورة الإيضاح في أمر الإيمان ظاهرة، فإن محله سر القلب ومحض العقل، بحيث أن المرء لا يخدع غيره فقط بل ربما هو يخادع نفسه فيظنه مؤمنا وليس بمؤمن. فصار للإيمان شاهدان: قول، وعمل. والقول ربما يكذب، فوجب التنبيه على أن المؤمن بلسانه لا يكون مؤمنا حقا إلا

---

[1] انظر: مادة (أمن) في: مفردات غريب القرآن: للراغب الأصفهاني، بتصرف، وقارن بباب الإيمان في: نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر: لابن الجوزي.

[2] أي قوله ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات: 15].

بأن يصدقه عمله. فجعل الله العمل محكا للإيمان الذي أصله أمر باطن...

فحمل كلمة ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وكل ما يذكر من الأعمال الخاصة بعد كلمة ﴿آمَنُوا﴾ على تفصيل الكلمة أحسن تأويلا. ولكن لا عليك إن جعلته مقابلا لـ﴿آمَنُوا﴾، فالإيمان له معنى [خاص وهو] الإيقان... وحينئذ يكون مجموع قوله: ﴿آمَنُوا وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ تعريف المؤمن حقا"[1].

شبهة وجوابها:

يقول محمد جواد مغنية: "وتسأل: أليس قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ يدل بظاهره إن الإنسان خاسر بطبعه، وأن جميع أفراده في الخسر سواء، وإذ كان الأمر كذلك فلا يصح تقسيم الإنسان إلى صالح وطالح وخاسر ورابح لأن ما بالذات لا يتغير؟ وبالتالي فما هو المبرر لقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾؟

الجواب: أن الله سبحانه لم يحكم على طبيعة الإنسان بالخسر من حيث هو وباعتبار جميع أفراده .. كلا، وإنما حكم عليه باعتبار الأعم الأغلب من أفراده، ومثله كثير في القرآن... فالإنسان بطبعه لا يعد خاسرا

[1] تفسير نظم القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص: 393-396، بتصرف بسيط.

ولا رابحا لأنه من هذه الحيثية يملك الأهلية والاستعداد لهما معا، فالحكم عليه بأحدهما ترجيح بلا مرجح، وإنما يحكم عليه بأحد الوصفين بالنظر إلى عقيدته وأعماله، لا بالنظر إلى ذاته وطبعه،... فقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ معناه أن الذين لم يؤمنوا أو آمنوا ولم يعملوا هم الخائبون الخاسرون، أما الذين آمنوا وعملوا فهم الفائزون الرابحون"[1].

❁ قوله ﷻ: ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾

﴿وَ﴾ "العطف [بالواو] يقتضي المغايرة، لكن يكفي في المغايرة الاعتبار، فيصح عطف العام على الخاص، وعطف الخاص على العام.

نعم، إن الخاص متضمن في العام وعطف أحدهما على الآخر يؤول إلى عطف الشيء على نفسه، وهو ممنوع قطعا، لكن اختلاف الاعتبار يصحح العطف، فاعتبار الشيء بخصوصه يختلف عن اعتباره ضمن عمومه، وفائدة العطف هنا الإشادة بفضل الخاص مثلا أو التنبيه عليه وتأكيده، وغير ذلك من الأغراض التي تحوم على الكيف لا الكم.

وهكذا يصح عطف النوع على الجنس، وعطف الفرد على النوع،

---

[1] انظر: التفسير الكاشف، محمد جواد مغنية: 7/606-607، بتصرف بسيط.

وعطف الفرد على الجنس، وهلم جرا...

وقد جاء النسق في الآية الشريفة على هذه القاعدة، فنلحظ ترتيب العناصر الأربعة تدريجيا على سلم العموم والخصوص، بحيث يكون المذكور المتأخر متضمنا في المذكور قبله: فالعمل الصالح نوع متضمن في جنس الإيمان، والتواصي بالحق فرد من أفراد العمل الصالح، والتواصي بالصبر صورة من صور التواصي بالحق"[1].

يقول عفيف طباره: "العمل الصالح هو ثمرة الإيمان بالله، لهذا قرن الله في القرآن الإيمان بالعمل الصالح مثل قوله: ﴿آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ أكثر من خمسين مرة مع الوعد والبشرى بمن يتحلى بهما بالسعادة في الدنيا والآخرة".

فالعمل الصالح ما به حياة الخلائق، وصلاح حال نفس الإنسان جسمه وعقله وقلبه، وقوام أمره في معاشه ومعاده، وأفراده وجماعته وسائر الخلق، لأن الإنسان جزء من العالم بأسره.[2]

و"قدَّم الإيمان؛ لأنَّه الأصل، فلا يتصوَّر العمل الصالح المقبول عند

---

[1] تفسير بياني لسورة العصر: لأبي عبد المعز، بتصرف.

[2] قارن بتفسير: نظم القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص: 399.

الله من دون إيمان، وأخَرَ العمل عنه؛ لأنَّه ثمرته، وعَطْفُ العمل على الإيمان يُفيد أنَّ العمل من لوازم الإيمان وثمراته، وليس من أركانه؛ لأنَّ العطف يقتضي المغايرَة"[1].

ومعنى ﴿عَمِلُواْ﴾ العمل: "كل فعل يكون من الحيوان بقصد"، فهو أخص من الفعل؛ لأن الفعل قد ينسب إلى الحيوانات التي يقع منها فعل بغير قصد، والصلاح: ضد الفساد، وهو مختص في أكثر الاستعمال بالأفعال[2].

وفي العمل هنا وجهان:

أحدهما: وعملوا بالطاعة.

والثاني: أي: أدوا الفرائض المفترضة عليهم، وهم أصحاب رسول الله ﷺ. وهو قول من يرى في ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ إشارة إلى صبر المؤمنين على أذى الكفار لهم بمكة.

فالوجه الأول معناه (عام) والثاني (خاص).

---

[1] مجالس النور: 1942/4.

[2] انظر: مادتي (عمل وصلح) في: مفردات غريب القرآن: للراغب الأصفهاني، بتصرف.

و﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ "جمع صالحة، والصلاح في اللغة ضد الفساد، وتستعمل الصالحات في المجال الديني نقيضا للسيئات، وهي الأعمال الطيبات التي تردد ذكرها في القرآن الكريم داعيا إليها حاثا عليها، وذلك فيما يتصل بعبادة الله، وطهارة النفس والإحسان إلى الجماعة"[1].

والتعريف في قوله: ﴿ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ تعريف الجنس الشامل المراد به الاستغراق ليعم جميع اسم جنس الصالحات؛ أي: عملوا جميع الأعمال الصالحة التي أمروا بعملها بأمر الدين، وعمل الصالحات يقتضي ترك السيئات[2].

وقد دل استثناء الذين آمنوا وعملوا الصالحات من أن يكونوا في خسر على أن سبب كون بقية الإنسان في خسر هو عدم الإيمان والعمل الصالح.

---

[1] روح القرآن الكريم، جزء: عم (تفسير سورة العصر): لعفيف طباره.

[2] يرى أ. د: محمد أمين أبو شهبة أن هذا الذي ذهب الإمام ابن عاشور في أن التعريف في الصالحات مراد به الاستغراق، والمراد أن كل فرد عمل كل الصالحات، "لا يدخل تحت قدرة البشر، فإن الصالحات لا يمكن الإحاطة بها"، ولعل الأقرب ما ذكره الشوكاني من أن المراد من التعريف "العهد"؛ أي: الصالحات المعهودة التي يتحتم عليه القيام بها". (قارن بـ: سورة العصر دراسة في المناسبات والسمات، لأبي شهبة، ص: 6414، والنشر لفوائد سورة العصر، للشوكاني، ص: 78).

يقول الطاهر بن عاشور: "ومن أكبر الأعمال الصالحات التوبة من الذنوب لمقترفيها، فمن تحقق فيه وصف الإيمان ولم يعمل السيئات أو عملها وتاب منها فقد تحقق له ضد الخسران وهو الربح المجازي، أي حسن عاقبة أمره، وأما من لم يعمل الصالحات ولم يتب من سيئاته فقد تحقق فيه حكم المستثنى منه وهو الخسران".

قال الشيرازي: "ولما كان الإيمان والعمل الصالح لا يكتب لهما البقاء إلا في ظل حركة اجتماعية تستهدف الدعوة إلى الحق ومعرفته من جهة، والدعوة إلى الصبر والاستقامة على طريق النهوض بأعباء الرسالة، فإن هذين الأصلين [الإيمان والعمل الصالح] تبعهما أصلان آخران [الحق والصبر] هما في الحقيقة ضمان لتنفيذ أصلي (الإيمان) و(العمل الصالح)"[1].

۞ قوله ﷻ: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾

جاء ذكر الوصية بالحق بعد الإيمان والعمل الصالح؛ "لأنَّ الإيمان والعمل الصالح مهما بلَغَ إن لم يكن معه عملٌ لنَشره وتعليمه، وتثبيت الناس عليه، فإنَّه سيُحاصّر ويضعُف ويغلبه الباطل"[2].

---

[1] الأمثل: 407/15، بتصرف بسيط.

[2] مجالس النور: 1942/4.

ومعنى الوصية: التقدم إلى الغير بما يعمل به مقترنا بوعظ، وتواصى القوم: إذا أوصى بعضهم إلى بعض. ومعنى ﴿وَتَوَاصَوْاْ﴾ أي: تحابوا، وأوصى بعضهم بعضا، وحث بعضهم بعضا[1]. وأخرج الطبراني في الأوسط، والبيهقي في الشعب، عن أبي مدينة [عبد الله بن حصن] الدارمي، وكانت له صحبة قال: "كان الرجلان من أصحاب النبي ﷺ إذا التقيا لم يتفرقا حتى يقرأ أحدهما على الآخر سورة العصر. ثم يسلم أحدهما على الآخر"؛ أي: سلام التفرق [تحية مودع]، وهو سنة أيضا مثل سلام القدوم[2].

و"لعل السر في قراءة الصحابة لهذه السورة أنهم كانوا يأولونها؛ فالسورة تدعو إلى التواصي بالحق، وهي نفسها حق، فاتحد الدال والمدلول، واختيار لحظة الفراق لقراءتها تأول آخر لمعنى (التواصي) لأن خطاب الوصية يتلبس دائما بالفراق (مادي أو معنوي، بالموت أو غيره)، فناسبت قراءة السورة المعنى والظرف معا. وهذا يدلك على منهج الصحابة في تدبر القرآن: الفهم العميق والمبادرة إلى التطبيق.

---

[1] انظر: تفسير جامع أحكام القرآن: للقرطبي، وقارن بمادة (وصى) في: مفردات غريب القرآن: للراغب الأصفهاني.

[2] الحديث صححه الألباني وأخرجه في سلسلة الأحاديث الصحيحة، ح. رقم: 2648، وانظر: تفسير ابن كثير، وفتح القدير: للشوكاني، وتفسير التحرير والتنوير: للطاهر ابن عاشور، والتفسير المنير: للزحيلي، وموسوعة التفسير بالمأثور.

ولنلحظ بصفة خاصة ذلك الغور المعجز لصيغة ﴿تَوَاصَوْاْ﴾:

فهي لوحدها تؤسس مذهبا في الحياة ونظاما فيها، فصيغة (تفاعل) دالة على المشاركة، لا يصح مجيء الفعل إلا من اثنين فأكثر، ومعنى هذا أن نجاة الإنسان لا يمكن أن تتحقق خارج المجتمع أو بعيدا عنه.

قد يحقق الإيمان، وبعض العمل الصالح، لكن شطر التواصي محكوم بالانخراط في جماعة.

ولنلحظ ثانية أن صيغة ﴿تَوَاصَوْاْ﴾ تلغي كل تراتبية في هذا الشأن: فليس ثمة طبقة (فاعلة) للوصية وطبقة (منفعلة بها) بل إن كل فرد فاعل ومنفعل في وقت واحد"[1]. "بتكميل النفس وهو ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ وتكميل الغير وهو: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ إذن نوعين من الأعمال الصالحة تكميل النفس بالإيمان والعمل الصالح وتكميل الغير بالتواصي بالحق والتواصي بالصبر. الإنسان ليس فقط يكون صابرا وإنما يتواصى لبناء المجتمع"[2].

"وفي هذا تقرير للمسؤولية الاجتماعية على الإنسان، وبيان أن كماله

---

[1] تفسير بياني لسورة العصر: لأبي عبد المعز، بتصرف.

[2] مقتبس عن د: فاضل السامرائي، في برنامج (لمسات بيانية) على قناة الشارقة.

في نفسه لا يكفي حتى يسعى إلى كمال غيره.

والتواصي بالحق ضرورة اجتماعية،... من هنا لم يأمر الإسلام متبعيه إلى الأخذ بالحق فقط، بل أمرهم بالتواصي به، والتواصي يشمل الأخذ بالحق وحث الغير عليه، وبهذا يعيشون للحق، ويصبح الحق هو المسيطر على كل منازعاتهم وبهذا يقضي على كل خلاف في الجماعة"[1].

ومعنى الحق: الصواب والصحيح، وضده: الباطل. وأصل الحق: المطابقة والموافقة، والحقّ يقال على أوجه: **الأول:** يقال لموجد الشيء بسبب ما تقتضيه الحكمة، ولهذا قيل في الله تعالى: هو الحقّ... **والثاني:** يقال للموجد بحسب مقتضى الحكمة، ولهذا يقال: فعل الله تعالى كلّه حق... **والثالث:** في الاعتقاد للشيء المطابق لما عليه ذلك الشيء في نفسه، كقولنا: اعتقاد فلان في البعث والثواب والعقاب والجنّة والنّار حقّ... **والرابع:** للفعل والقول بحسب ما يجب وبقدر ما يجب، وفي الوقت الذي يجب، كقولنا: فعلك حقّ وقولك حقّ[2].

و"الحق هو المطلوب والغاية لعروجنا: فاعلم أن الحق في الأصل

---

[1] روح القرآن الكريم، جزء: عم (تفسير سورة العصر): لعفيف طباره.

[2] انظر: مادة (حق) في: مفردات غريب القرآن: للراغب الأصفهاني، بتصرف بسيط، وباب الحق في: نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر: لابن الجوزي.

هو الموجود المستقر. فله وجوه، أو درجات. فهو:

- الواقع في الكون.
- والثابت في العقل.
- والواجب في الأخلاق إما لك وإما عليك.

واستعمله القرآن بهذه المعاني كلها"[1].

وفي الحق هنا ستة تأويلات[2]:

التأويل الأول: أنه توحيد الله.

التأويل الثاني: أنه القرآن كتاب الله، لقوله ﷻ: ﴿وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ﴾ [الأنعام: 66].

التأويل الثالث: أنه اتباع رسول الله ﷺ.

التأويل الرابع: أنه الله، لقوله ﷻ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ﴾ [الحج: 6].

التأويل الخامس: أن يوصي مخلفيه عند حضور المنية ألا يموتن

---

[1] تفسير نظم القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص: 401، بتصرف بسيط.

[2] انظر: تفسير النكت والعيون: للماوردي، وتفسير جامع البيان: للطبري.

إلا وهم مسلمون.

التأويل السادس: أنه طلب العلم[1].

وهو اختلاف تنوع لا تضاد؛ إذ يمكن الجمع بين هذه الأقوال، ويؤيده قول الشوكاني: "والحمل على العموم أولى". وهو الصواب لأن مفردة الحق تشمل هذا كله. فلا تعارض بين الأقوال، بل جميعها تتفق في أن التواصي يكون بجميع ما أمر الله ﷻ به، وبجميع ما أمر به النبي ﷺ: بالمرسِل والرسالة والرسول. والوصية بالحق تشمل الشريعة كلها، فتشمل كل ما جاءت الوصية به في القرآن والسنة.

۞ قوله ﷻ: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾

قوله ﷻ: ﴿وَتَوَاصَوْاْ﴾ "كرر لإختلاف المفعولين، وهما: بالحق، وبالصبر. وقيل لإختلاف الفاعلين، فقد جاء مرفوعا: (إن الإنسان)"[2].

"ولما كان وقع الحق ثقيلا على الأنفس، وأن التواصي به تلازمه المحن والصعاب وذلك يقتضي بدوره صبرا، لذلك قرن الله التواصي بالصبر

---

[1] انظر: درج الدرر في تفسير الآي والسور: لعبد القاهر الجرجاني.

[2] البرهان في توجيه متشابه القرآن: للكرماني، ص: 202-203.

مع التواصي بالحق"[1]. "لأنَّ التواصِي بالحقِّ يُعرِّض المُتواصِين لعداوة أهل الهوى والضلال، فكان لا بُدَّ من التدرُّع بالصبر والتواصِي به أيضًا"[2].

"ومثله قول ابن مسعود: «يأتي عَلَى الناس زمان يكون المؤمن فيه أذل من الأمة»[3]؛ وإنما ذل المؤمن آخر الزمان لغربته بين أهل الفساد من أهل الشبهات والشهوات فكلهم يكرهه ويؤذيه لمخالفة طريقته لطريقتهم ومقصوده لمقصودهم ومباينته لما هم عليه؛ من الشر والفساد والخبث وسائر الصفات القبيحة التي أهونها توريد الكفار والملاهي والمنكرات لبلاد المسلمين"[4].

"وجملة القول أن الحق يفتح أبواب الخيرات كلها، والصبر يسد عورات الشرور بأجمعها. فالحق هو المحبوب، والصبر هو الالتزام به... ولا

---

[1] روح القرآن الكريم، جزء: عم (تفسير سورة العصر): لعفيف طباره.

[2] مجالس النور: 1942/4.

[3] أخرجه نعيم بن حماد في الفتن بزيادة: «أَكْيَسُهُمْ الَّذِي يَرُوغُ بِدِينِهِ رَوَغَانَ الثَّعْلَبِ». وبنحوه رواه عن علي، وفي رواية أخرى بلفظ: «أذل من شاته»، والحديث طرقه كلها ضعيفة.

[4] انظر: مورد الظمآن لدروس الزمان: لعبد العزيز السلمان: 430/4، وقارن: بكشف الكربة في وصف أهل الغربة: لابن رجب الحنبلي، ص: 321، وغربة الإسلام: لحمود التويجري: 16/1، وموسوعة محاسن الإسلام ورد شبهات اللئام: لأحمد أيوب وآخرون: 343/7.

يخفى أنه ليس بعد الفوز بالسعادة الكبرى إلا الدوام عليها. فجمع الخير كله في كلمتين: الحق والصبر"[1].

و"الصبر عند العرب ليس من التذلل في شيء، كما يصبر المضطهد العاجز، بل هو أصل القوة والعزم. وكثر في كلام العرب استعماله بهذا المعنى"[2].

ومعنى الصبر: الإمساك في ضيق، وحبس النفس عما تنازع إليه وعلى ما يقتضيه العقل والشرع، أو عما يقتضيان حبسها عنه؛ فالصبر لفظ عام[3]، وفيه هنا وجهان[4]:

الوجه الأول: الصبر على طاعة الله ﷻ، والقيام بشريعته.

الوجه الثاني: الصبر على ما افترض الله وحكمه.

ويحتمل **وجها ثالثا:** الصبر عن معاصيه، وعن المحارم واتباع

---

[1] تفسير نظم القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص: 403، بتصرف بسيط.

[2] انظر: المرجع السابق، ص: 391. ومفردات القرآن: للفراهي، ص: 288.

[3] انظر: مادة (صبر) في: مفردات غريب القرآن: للراغب الأصفهاني.

[4] قسم أهل العلم (الصبر) هنا إلى ثلاثة أقسام: الأول: الصبر على فعل الطاعات، والثاني: الصبر على ترك المعاصي، والثالث: الصبر على بلاء الأقدار.

الشهوات.

(قلت): والمعاني متقاربة.

قال الرازي في تفسير قوله ﷻ: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾: "فاعلم أنه تعالى لما بين في أهل الاستثناء أنهم بإيمانهم وعملهم الصالح خرجوا عن أن يكونوا في خسر وصاروا أرباب السعادة، من حيث إنهم تمسكوا بما يؤديهم إلى الفوز بالثواب والنجاة من العقاب، وصفهم بعد ذلك بأنهم قد صاروا لشدة محبتهم للطاعة لا يقتصرون على ما يخصهم بل يوصون غيرهم بمثل طريقتهم ليكونوا أيضا سببا لطاعات الغير كما ينبغي أن يكون عليه أهل الدين وعلى هذا الوجه قال ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قُوٓاْ أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾ [التحريم: 6].

"واعلم أن قوله ﷻ: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ يدل على أنهم أهل الحق والصبر، ويتواصون بهما بعد العمل. وإنما لم يصرح بهذا، لأن الإيمان ثم عمل الصالحات قد اشتمل عليه، ولأن نفس التواصي بالشيء من غير العمل به بادي القبح. وهذا موقع المدح، فلا يصار إليه"[1].

وقال المراغي في تفسيره –نقلا عن تفسير الآلوسي–: "وخلاصة

[1] تفسير نظم القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص: 404.

أمرهم أنهم باعوا الفاني الخسيس، واشتروا الباقي النفيس، واستبدلوا الغاديات الرائحات بالباقيات الصالحات، فيالها من صفقة ما أربحها، ومنقبة جامعة للخير ما أوضحها!"[1].

والمسلمون اليوم إذا طبقوا هذه الأصول الأربعة التي ذكرتها السورة المباركة وهي الإيمان والعمل الصالح والتواصي بالحق والصبر في حياتهم الفردية والاجتماعية لتغلبوا على كل ما يعانون منه من مشاكل وتدهور وتخلف، ولبدلوا ضعفهم وهزيمتهم انتصارا، ولاقتلعوا شر الأشرار من على ظهر الأرض[2].

***

[1] قارن بتفسير: إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: لأبي السعود.

[2] انظر: الأمثل: للشيرازي: 408/15، بتصرف.

فرائد التفسير ونكته

قال الماتريدي في تفسير قوله ﷻ: "﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ إن الدنيا وما فيها كأنها خلقت وأنشئت متجرا للخلق، والناس فيها تجار؛ كما ذكره في غير آي من القرآن، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ [التوبة: 111]، وقال: ﴿هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَـٰرَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الصف: 10]، أي: إن الإنسان لفي خسار من تجارته ومبايعته ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ...﴾ الآية"[1].

وقال إبراهيم [النخعي من طريق عبد الله بن عون المزني] في تفسير هذه السورة: "إن الإنسان إذا عَمَّرَ في الدنيا لفي نقص وضعف، إلا المؤمنين، فإنهم يكتب لهم أجور أعمالهم التي كانوا يعملون [بها] في شبابهم وصحتهم"[2].

وروى القرطبي عن أبي بن كعب ﷺ قال: "قرأت على رسول الله ﷺ والعصر ثم قلت: ما تفسيرها يا نبي الله؟ قال: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ قسم من الله، أقسم ربكم بآخر النهار؛ ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَـٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾: أبو جهل [بن هشام]، ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾: أبو بكر [الصديق]، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ﴾: عمر [ابن

---

[1] تفسير تأويلات أهل السنة: للماتريدي.

[2] انظر: تفسير زاد المسير: لابن الجوزي، وموسوعة التفسير بالمأثور.

الخطاب]، ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ﴾: عثمان [ابن عفان]، ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾: علي [ابن أبي طالب]" ﷺ[1]. وهكذا خطب ابن عباس على المنبر موقوفا عليه، وإن صح هذا الحديث[2]؛ فإن العبرة بعموم اللفظ، والسياق على ظاهره لا

---

[1] ذكره القرطبي وابن عطية بلا سند ولم يذكرا تخريجه، وأخرجه الثعلبي في تفسيره: (الكشف والبيان) بإسناد فيه مجاهيل، وفيه من لم يذكر بجرح أو تعديل، وانظر: موسوعة التفسير بالمأثور، وقارن بتفسير: التسهيل: لابن جزي. وذكره ابن تيمية في: (منهاج السنة النبوية: 246/7) كمثال لتفسير جهال المنتسبين للسنة في فضائل الخلفاء الأربعة. وعلق على مثل هذا النوع من التفسير بقوله: "وأعجب من ذلك قول بعضهم ﴿وَالتِّينِ﴾ أبو بكر ﴿وَالزَّيْتُونِ﴾ عمر ﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ عثمان ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ [التين: 1-3] علي، وأمثال هذه الخرافات التي تتضمن تارة تفسير اللفظ بما لا يدل عليه بحال، فإن هذه الألفاظ لا تدل على هؤلاء الأشخاص" (مقدمة في أصول التفسير: لابن تيمية، مؤسسة الريان، ط/2 –2001 م، ص: 52–53)، وحكاه الحاكمي في تفسيره وقال: "وصف الله أبا بكر بالإيمان لأنه سابق في الإيمان، وخص عمر بالعمل الصالح لأن التواصي بالحق والصبر يدخلان في العمل الصالح، وخص عثمان بالتواصي بالحق لأن التواصي بالحق جزء من العمل الصالح، والتواصي بالصبر داخل في التواصي بالحق، وخصَّ عليا بالصبر لأنَّ مجاهدة العدو واعتماد أمور الدين معه لا يحصل إلا بالصبر، فصح ترتيب فضل الصحابة في تفسيره على ما عليه الأمة الهادية" (تخليص الدرر: 474/4). (قلت): قول الحاكمي مبني على حديث باطل، والقاعدة: "أن ما بني على باطل فهو باطل".

[2] أورد الحافظ ابن حجر في آخر سورة العصر من كتاب التفسير في فتح الباري تنبيها قال فيه: "لم أر في تفسير هذه السورة حديثا مرفوعا صحيحا".

يخص الإنسان بفلان أو بآخر.

وقرأ علي بن أبي طالب ﷺ [من طريق عمرو ذي مر]: «والعصر ونوائب الدهر إن الإنسان لفي خسر وإنه فيه إلى آخر الدهر إلا الذين...»، وهي قراءة شاذة، تُروَى أيضا عن ابن مسعود، وميمون بن مهران، وإبراهيم النخعي بنحوها، وفي مصحف عبد الله ﷺ: «والعصر لقد خلقنا الإنسان في خسر». والصحيح ما عليه الأمة والمصاحف. ورد ما خالف مصحف عثمان، وأن ذلك ليس بقرآن يتلى؛ فهذا مفسد للصلاة؛ فلا نقول: إنه قرأه قرآنا بل تفسيرا، وبه قال القرطبي، والرازي، والثعلبي في تفسيره: (الكشف والبيان)[1].

وقال أحدهم نظما[2]:

قسما بسورة العصر *** إن الإنسان في خسر
غير من أوصوا نفوسهمو *** بينهم بالحق والصبر
فهمو القوم الذين نجوا *** من عذاب الله في القبر
ثم في يوم النشور إذا *** جمعوا للعرض في الحشر

***

[1] انظر: تفسير جامع البيان: للطبري، وموسوعة التفسير بالمأثور.

[2] رحمة من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن الكريم من كلمات الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي، جمع وتأليف: محمود محمود الغراب: 543/4.

ومن **المسائل المستفادة** من هذه السورة الكريمة ما يلي[1]:

المسألة الأولى: "أقسم ﷻ بالدهر الذي هو زمن الأعمال الرابحة والخاسرة، على أن كل واحد في خسر، إلا من كمل قوته العلمية بالإيمان بالله، وقوته العملية بالعمل بطاعته. فهذا كماله في نفسه، ثم كمل غيره بوصيته له بذلك، وأمره إياه به، وبملاك ذلك، وهو الصبر. فكمل نفسه بالعلم النافع والعمل الصالح، وكمل غيره بتعليمه إياه ذلك، ووصيته له بالصبر عليه"[2].

المسألة الثانية: قيمت الوقت في حياة المسلم[3]

لبيان أهمية الوقت أقسم الله في مطلع هذه السورة المكية بجزء من الوقت (العصر)، ومن المعروف لدى المفسرين، وفي حس المسلمين: أن الله إذا أقسم بشيء من خلقه، فذلك ليلفت أنظارهم إليه، وينبههم على جليل

---

[1] بعض المفسرين –وعلى رأسهم الرازي– أثاروا في تفسير سورة العصر عددا من المسائل الجدلية للمتكلمين، ليس هنا محل إيرادها، كالذي ثار بين المعتزلة والأشعرية من خلاف حول تسمية الأعمال بالصالحات: هل لكونها في نفسها مشتملة على وجوه الصلاح؟ أو لأن الله ﷻ أمر بها؟

[2] إغاثة اللهفان، لابن قيم الجوزية، ص: 45.

[3] انظر: الوقت في حياة المسلم: ليوسف القرضاوي، ص: 9–22 بتصرف. وقارن: بقيمة الزمن عند المسلمين: لعبد الفتاح أبو غدة، ص: 11–12، بتصرف.

منفعته وآثاره.

فالله سبحانه قد أقسم بالزمن في سورة العصر في أمر هام وهو حكمه تعالى بالخسار على جميع الناس إلا من أتى بهذه الأشياء الأربعة وهي: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر.

والخسران في التجارة هو ذهاب رأس المال، ورأس مال الآدمي هو عمره ونفسه، فإذا كفر فقد ذهب رأس ماله، فإن لم يستعمل نفسه وعمره فيما يوجب له الربح الدائم، فهو في خسران، لأنه عمل في إهلاك نفسه وعمره، وهما أكبر رأس ماله. فما الأنام إلا مجموعة أيام كلما ذهب يوم ذهب بعضه، ولما كان الوقت سريع الانقضاء وكان ما مضى منه لا يعود ولا يعوض، كان الوقت أنفس ما يملك الإنسان، لأنه وعاء لكل عمل وكل إنتاج، فهو في الواقع رأس المال الحقيقي للإنسان، فواجب المسلم نحو الوقت الحرص على الاستفادة منه، واغتنام وقت الفراغ في المسارعة في الخيرات والطاعات، والاعتبار بمرور الأيام.

وحقيقة الخسران أن يخسر الإنسان عمره في غير طاعة الله. لذا جاء في السورة "الإنذار بِقِصَرِ الأعمار وغَبْنِ الخُسْران، كما يُوَضِّحُه قولُ اللهِ تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢﴾، إذِ العَصْرُ: هو العُمُر المُتصَرِّمُ [أي: المتقطع] مع الأنفاس، والخُسْرُ: خَيْبَةُ الأملِ وضَلالُ السَّعْي،

وفَواتُ ما في اليد من جميع النِّعَمِ"[1].

المسألة الثالثة: "تتحقق الشمولية في سورة العصر باعتبار تصنيف الناس؛ فهنا فريقان: الخاسرون والناجون.

مع الإشارة إلى النسبة الكمية بين الفريقين، فالخاسرون أكثر عددا من الناجين بدلالة الاستثناء، فقد تقرر في اللغة أنه يستثنى الأقل من الأكثر ولا يجوز العكس.

وهذه الإشارة متفقة مع النصوص الصريحة –في القرآن والسنة– التي تثبت هلاك غالب الناس"[2].

المسألة الرابعة: هذه السورة "فيها وعيد شديد؛ وذلك لأنه ﷻ حكم بالخسار على جميع الناس إلا من كان آتيا بهذه الأشياء الأربعة وهي: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر. فدل ذلك على أن النجاة معلقة بمجموع هذه الأمور وإنه كما يلزم المكلف تحصيل ما يخص نفسه فكذلك يلزمه في غيره أمور، منها الدعاء إلى الدين والنصيحة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن يحب له ما يحب لنفسه، ثم كرر

---

[1] تفسير سورة العصر المتضمنة هداية سبيل الرشاد في أقصر الآماد: لابن المنفلوطي خطيب مَلّوِي، ص: 39.

[2] تفسير بياني لسورة العصر: لأبي عبد المعز، بتصرف بسيط.

التواصي ليضمن الأول الدعاء إلى الله، والثاني الثبات عليه، والأول الأمر بالمعروف والثاني النهي عن المنكر"[1].

المسألة الخامسة: سنة الخسران الخاصة بالكافرين.

"من سنة الله أن الكافرين لا يفلحون، إنهم خاسرون. وهي سنة نافذة لا تتخلف، كما أن الفلاح للمؤمنين طرف من الناموس الكبير.

ونرى مؤشرات الخسران تبدو جلية في المجتمعات الجاهلية المعاصرة بارتفاع معدلات الجريمة، والقلق والاكتئاب، والانتحار والجنون، والأمراض النفسية والعصبية، والإسراف في تناول الخمر والمخدرات محاولة للهروب من الواقع الكالح الذي تعيشه هذه المجتمعات الكافرة"[2].

فسنة الله في خلقة التي لا تتغير ولا تتبدل أن من يعرض عن منهج الله القويم فهو في خسران مبين. وأن من يلتزمه فهو في سعادة وربح عظيم إلى يوم الدين.

المسألة السادسة: "في تقديم الإيمان على العمل الصالح إشارة إلى انبثاق العمل الصالح من الإيمان؛ فالإيمان هو الذي يدفع صاحبه إلى الخير

---

[1] التفسير الكبير: للرازي، بتصرف بسيط.

[2] السنن الاجتماعية في القرآن الكريم، لأستاذي محمد أمحزون: 564/1، بتصرف.

ويزعه عن الشر. وفي ربط الإيمان بالعمل الصالح إشارة إلى وجوب تلازمهما واعتبار العمل الصالح عنوانا أو مظهرا للإيمان، وهذا التلازم بين ذكر الإيمان والعمل الصالح يلحظ في [قوله ﷻ: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾] مما يمكن أن يدل على قصد الإشارة إلى شدة الارتباط واللحمة والتوافق بينهما وتوكيدها...

والحكمة في هذا ظاهرة قوية؛ فالإيمان يمنح صاحبه طمأنينة واستقرار نفس يجعلانه يصدر في أعماله وأهدافه عن يقين وقصد وتثبت واندفاع وصبر، ويتحمل في سبيل ذلك ما قد يلاقيه من مصاعب وما تمس الحاجة إليه من تضحيات.

والإيمان بالله يجعل صاحبه يقبل على الخير والعمل الصالح وينقبض عن الشر والإثم والسيئات ابتغاء لوجه الله واتقاء لغضبه واكتسابا لرضائه ورضوانه، دون أن يكون هناك حافز من منفعة عاجلة أو دون أن يكون ذلك مما لا بد منه على الأقل.

أما العمل الذي لا يصدر عن إيمان فإنه يكون معرضا في الأغلب للانقطاع والتردد والتأثر بالمؤثرات والاعتبارات الشخصية والنفعية والظرفية، وكثيرا ما ينصرف المرء عنه حينما يلقى المصاعب والمشاكل، أو حينما يتطلب منه التضحيات أو حينما لا يكون من ورائه جلب خير أو دفع شر

عاجل، والعمل الصالح من الجهة الأخرى لا يكون فيه حيوية ويقين وتثبت واستمرار إذا لم يكن منبثقا من إيمان يجعله لازما حيّا قويا بذاته وبصرف النظر عن أي اعتبار، ويجعل صاحبه لا ينصرف عنه مهما لاقى في سبيله من مصاعب واقتضى منه من تضحية وعناء واستنفد من قوة وجهد"[1].

المسألة السابعة: اشتمل قوله ﷻ: ﴿وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ﴾ على إقامة المصالح الدينية كلها، فالعقائد الإسلامية والأخلاق الدينية مندرجة في الحق، والأعمال الصالحة وتجنب السيئات مندرجة في الصبر[2].

المسألة الثامنة: "دلت الآية على أن الحق ثقيل، وأن المحن تلازمه؛ فلذلك قرن به التواصي"[3]. وكذلك الأعمال الصالحة كلها لا تخلو من إكراه النفس على ترك ما تميل إليه، وفي الحديث: «حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات» (رواه مسلم في صحيحه عن أنس بن مالك). ولأجل ذلك ذكر ﷻ الصبر وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 153].

---

[1] التفسير الحديث: لمحمد عزة دروزة، بتصرف.

[2] انظر: تفسير التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور.

[3] التفسير الكبير: للرازي، بتصرف بسيط.

المسألة التاسعة: "التخلق بالصبر ملاك فضائل الأخلاق كلها فإن الارتياض بالأخلاق الحميدة لا يخلو من حمل المرء نفسه على مخالفة شهوات كثيرة، ففي مخالفتها تعب يقتضي الصبر عليه حتى تصير مكارم الأخلاق ملكة لمن راض نفسه عليها"[1].

المسألة العاشرة: تقسم السورة الناس إلى فئة خاسرة وفئة رابحة، وجاء وصف الفئة الرابحة في الآية الثالثة من السورة بصفات أربعة وهي: الإيمان، والعمل الصالح، والتواصي بالحق، والتواصي بالصبر. ومن هذه الصفات الأربع تؤخذ صفات الفئة الخاسرة التي أقسم الله ﷻ عليها، أخذا من مفهوم المستثنى، وتتصف أيضا بأربع صفات هي: الكفر والشرك، والعمل الفاسد، والتواصي بالباطل، والجزع والسخط، وقد دلت السورة على خسران وهلاك كل فئة من هذه الفئات الأربع[2].

المسألة الحادية عاشرة: الحكمة في إبهام سبب الخسران وذكر سبب الربح، ذكر الرازي في تفسيره: "إنه في جانب الخسر ذكر الحكم ولم يذكر السبب وفي جانب الربح ذكر السبب، وهو الإيمان والعمل الصالح، ولم يذكر الحكم فما الفرق قلنا: إنه لم يذكر سبب الخسر لأن الخسر كما يحصل بالفعل، وهو الإقدام على المعصية يحصل بالترك، وهو عدم الإقدام

---

[1] تفسير التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور.

[2] انظر: واحة التفسير: لأحمد الطويل: 471/15، بتصرف.

على الطاعة، أما الربح فلا يحصل إلا بالفعل، فلهذا ذكر سبب الربح وهو العمل، وفيه وجه آخر، وهو أنه تعالى في جانب الخسر أبهم ولم يفصل، وفي جانب الربح فصل وبين، وهذا هو اللائق بالكرم".

وقال البيضاوي: "ولعله سبحانه وتعالى إنما ذكر سبب الربح دون الخسران اكتفاءً ببيان المقصود [فإن المقصود بيان ما فيه الفوز بالحياة الأبدية، والسعادة السرمدية]، وإشعارًا بأن ما عدا ما عُدَّ يؤدي إلى خسر ونقص حظ، أو تكرمًا، فإن الإبهام في جانب الخسر كرم [لأنه ترك تعداد مثالبهم وأعرض عن مواجهتهم به]"[1].

المسألة الثانية عشرة: "إن الإيمان هو الأصل والأم، وذكر العمل الصالح تفصيل لطرف ظاهر من الإيمان... فكذلك لما كان الحق [بالمعنى العام الوسيع] هو محبوب العقل والقلب [معا]، وبه كمالهما وصلاحهما كان الصبر نتيجة هذه المحبة. وبقدر المحبة للشيء يكون الالتزام به، والذب عنه، والغضب له، والغيرة عليه. فقد تبين لنا أن التواصي يتفرع من عمل الصالحات، كما أن عمل الصالحات يتفرع من الإيمان. فإن من زين إليه

[1] انظر: تفسير البيضاوي: 336/5، وقارن بتفسير: روح البيان: لإسماعيل حقي: 507/10.

الحق، وعمل به، وصبر له ازداد به علما، وله حبا، وعليه غضبا؛ وأفرغ جهده لحمايته"[1].

المسألة الثالثة عشرة: "مما تقدم من تفسير (العمل الصالح)، و(الحق)، و(الصبر)، و(التواصي) اتضح من غير شبهة ما أودع الله في هذه السورة من فرائض السياسة، والتعاون، والمرابطة في التعايش، وإبطال الخمول والاعتزال عن أمور الأمة العمومية"[2].

"فقد تضمَّنَت الآيات شرطًا ضمنيًّا، وهو التعاوُنُ والتكاتف والتكافل بين أهل الحقِّ؛ فكلّ الشروط الأربعة جاءت مسندةً إلى واو الجماعة، والجماعة هي الأُمَّة المؤمنة، فلا بُدّ من إعلان الانتماء لها، والعمل معها وفي صالحها، إضافةً إلى أنَّ فعل التواصِي لا يتحقَّق إلَّا بالمشاركة والتفاعل مع الناس"[3].

فمن الملاحظ أن آيات السورة جاءت بصيغة الجمع، والتي تدل صراحة على أن النجاة من الخسران يكون من عمل الجماعة المسلمة، إذا قامت بواجبها...؛ وأعني نظام الحكم بشريعة الإسلام الضمين الضابط لكيان

---

[1] تفسير نظم القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان، ص: 403-404، بتصرف بسيط.

[2] المرجع السابق، ص: 405.

[3] مجالس النور: 1941/4.

المجتمع المسلم الذي يعمل بنظام الجماعة لا بنظام الفردية التي تشذ عن الصراط[1].

* * *

[1] انظر: سورة العصر: دراسة تحليلية موضوعية، لأبي عبيدة، ص: 41 بتصرف.

(ملحق تفسير سورة العصر)

بعض المفسرين يذكرون في فضائل سورة العصر قصة عمرو ابن العاص ومسيلمة الكذاب وهي رواية لا علاقة لها بفضائل السورة وإنما محلها كتب بيان الإعجاز القرآني أو التفسير البلاغي أو كتب السيرة النبوية ولو لم يختلف في صحتها لما ذكرناها –لتبيين أنها رواية صحيحة– لأنه لا يتوقف عليها كبير فائدة في التفسير، قال ابن كثير في تفسيره: "ذكروا أن عمرو بن العاص وفد على مسيلمة الكذاب [لعنه الله] وذلك بعد ما بعث رسول الله ﷺ وقبل أن يسلم عمرو، فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم في هذه المدة؟ قال لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة. فقال: وما هي؟ فقال: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [سورة العصر]، ففكر مسيلمة هنيهة ثم قال: وقد أنزل علي مثلها. فقال له عمرو: وما هو؟ فقال: يا وبر يا وبر، إنما أنت أذنان وصدر، وسائرك حقر نقر. ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب".

وقال ابن كثير: "والوبر دويبة تشبه الهر، أعظم شيء فيه: أذناه وصدره، وباقيه دميم"[1]، وجاء في اللسان (228/5): "النقر والنقرة والنقير:

[1] علق محققه سامي السلامة على القصة قائلا: "وفي صحة هذه القصة نظر؛ فإن إسلام عمرو بن العاص متقدم على تنبئ مسيلمة، فإن مسيلمة الكذاب تنبأ سنة عشر=

النكتة في النواة، كأن ذلك الموضع نقر منها، فقوله: حقر نقر: على الاتباع، كما تقول: حقير نقير".

وقال في تاريخه: "وقد روينا عن عمرو بن العاص، أنه وفد إلى مسيلمة في أيام جاهليته، فقال له مسيلمة: ماذا أنزل على صاحبكم في هذا الحين؟ فقال له عمرو: لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة. فقال: وما هي؟ قال: أنزل عليه ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [سورة العصر]، قال: ففكر

= من الهجرة، وكان قد وفد على النبي ﷺ مع قومه سنة عشرة من الهجرة، كما في السيرة النبوية: لابن هشام (74/3). وعمرو بن العاص أسلم سنة ثمان [في هدنة الحديبية] على الأصح كما في الإصابة: للحافظ ابن حجر (2/3). ثم وقفت على ما نقله الحافظ ابن حجر في الإصابة (225/3): (أن عمرا بن العاص أرسله رسول الله ﷺ إلى البحرين وتوفي رسول الله ﷺ وهو هناك وأنه مر على مسيلمة وأنه أعطاه الأمان ثم قال له: إن محمدا أرسل في جسيم الأمر وأرسلت في المحقرات...) فذكر نحو القصة، وعزاه لابن شاهين في الصحابة، فعلى هذا يكون ما جاء هنا بعد إسلام عمرو بن العاص وليس قبل إسلامه، والله أعلم.

وقد ذكر الحافظ ابن حجر أن ابن شاهين وصل هذه القصة من طريق الليث عن خالد ابن يزيد، عن سعيد بن أبي هلال: (أن قرة بن هبيرة قدم على رسول الله ... ثم ذكر أن رسول الله ﷺ أرسل عمرا إلى البحرين، فذكر نحو القصة) الإصابة (225/3)" (تفسير ابن كثير، تحقيق: سامي بن محمد السلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط/2- 1999 م: 179/8).

مسيلمة ساعة، ثم رفع رأسه فقال: ولقد أنزل علي مثلها. فقال له عمرو: وما هو؟ فقال مسيلمة: يا وبر يا وبر، إنما أنت أذنان وصدر، وسائرك حقر نقر. ثم قال: كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: والله إنك لتعلم أني أعلم إنك لتكذب"[1].

---

[1] البداية والنهاية: لابن كثير (479/9)، وقارن بفضل سورة العصر في التفسير المنير: للزحيلي (391/30)، والأساس في التفسير: لسعيد حوى (6670/11)، وقد شكك في صحة هذه القصة التي رواها ابن كثير في تفسيره، المؤرخ العراقي جواد علي في موسوعته التاريخية قال: "والرواية موضوعة، فسورة (العصر) من السورة المكية ورقمها "27" حسب ترتيب نزول السور بمكة على رأي العلماء، أي قبل الهجرة، وقبل إسلام (عمرو) بزمن، وقبل مجيء (مسيلمة) إلى المدينة مع وفد حنيفة، وبعد مجيئه إليها بدأت دعوته بمعارضة الرسول. ثم إن جملة: (ماذا أنزل على صاحبكم في هذه المدة؟) جملة تشعر أن (عمرو ابن العاص) كان مسلما إذ ذاك، بينما كان هو من المشركين في ذلك العهد. ثم إن ما نسب إلى (مسيلمة) من آيات، وضع على وزن آيات القرآن ومحاكاة لها، وليس في: (يا وبر يا وبر إلخ) أي شيء يضاهي: (والعصر) في النسق أو في المعنى، وعندي أن الخبر من الأخبار الموضوعة. وقد يكون (عمرو بن العاص) قد زار اليمامة، فهذا شيء غير مستبعد، فقد كان تاجرا وكان تجار مكة يسافرون إلى اليمامة وإلى غيرها للاتجار، أما أنه ذهب خاصة لزيارة (مسيلمة) ومكالمته على نحو ما يرد في الخبر، فأسلوب يدل على وجود الصنعة فيه أكثر مما يدل على الصحة وصدق الرواية" (المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: الدكتور جواد علي (ت 1408 هـ)، دار الساقي، ط/4- 2001 م: 296-295/13).

وبنحوه عند السخاوي في جمال القراء قال: "ولقد حكى عن عمرو ابن العاص أنه مر باليمامة، فأتى مسيلمة الكذاب ليختبر ما عنده، فقال له مسيلمة: ما الذي نزل على صاحبكم في هذه الأيام؟ فقال عمرو: نزل عليه ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [سورة العصر]، فقال مسيلمة: قد نزل علي نحو من هذا. فقال له عمرو: وما ذلك؟ فقال يا وبر يا وبر، أذنان وصدر، وسائرك حقر نقر، كيف ترى يا عمرو؟ فقال له عمرو: إنك لتعلم أني أعلم أنك تكذب"[1].

---

[1] علق عليه محققه عبد الحق سيف القاضي قائلا: "إن ابن كثير يذكر هذا عن عمرو ابن العاص وهو لا زال في الجاهلية والخطابي [ذكر نحوه بسنده، انظر ثلاث رسائل في إعجاز القرآن، ص: 56] يقول: إن الرسول ﷺ بعث عمرو بن العاص إلى البحرين ... فمر على مسيلمة .. إلخ.

والذي ترجح عندي وملت إليه أن مرور عمرو بن العاص بمسيلمة كان بعد إسلامه بدليل ما يأتي:

أولا: قول الخطابي: إن الرسول ﷺ بعث عمرو بن العاص إلى البحرين فمر على مسيلمة.

ثانيا: أن ابن كثير يقول: والصحيح أن عمرو أسلم قبل الفتح بستة أشهر –أي في هدنة الحديبية– انظر البداية والنهاية (27/8)، وراجع (238/4)، من المصدر نفسه وسيرة ابن هشام (277/2).

ثالثا: ذكر ابن حجر أن عمرو بن العاص قدم عمان –وهي قريبة من البحرين– من عند النبي ﷺ .. وكان ذلك بعد خيبر ولعل ذلك كان بعد حنين فتصحفت .. (اهـ. باختصار،=

كما أن جماعة من أهل التأويل يذكرون في توجيه تفسير دلالة العصر بأنها صلاة العصر أنه: "روي أن امرأة كانت تصيح في سكك المدينة وتقول: دلوني على النبي ﷺ فرآها رسول الله ﷺ، فسألها ماذا حدث؟ قالت: يا رسول الله إن زوجي غاب عني فزنيت فجاءني ولد من الزنا فألقيت الولد في دن من الخل حتى مات، ثم بعنا ذلك الخل فهل لي من توبة؟ فقال عليه السلام: أما الزنا فعليك الرجم، أما قتل الولد فجزاؤه جهنم، وأما بيع الخل فقد ارتكبت كبيرا، لكن ظننت أنك تركت صلاة العصر"، وقيل أن في هذا الحديث إشارة إلى تفخيم أمر هذه الصلاة[1].

= فتح الباري: 96/8).

رابعا: ذكر ابن كثير أن الوفود جاءت إلى رسول الله في العام التاسع، ومن بين هؤلاء الوفود: وفد بني حنيفة وكان مع وفد بني حنيفة مسيلمة الكذاب، وقد أعطاهم ﷺ وأكرمهم، فأخبروه أن مسيلمة تأخر في رحالهم فأمر له بنصيبه وقال: «أما إنه ليس بشركم مكانا» أي لحفظه شيعة أصحابه، وبعد عودته إلى اليمامة تفاقم أمره وادعى النبوة... (اهـ. بتصرف، البداية والنهاية: 46/5)، وراجع سيرة ابن هشام (600/2)، وفتح الباري (89/8)". (انظر جمال القراء: للسخاوي: 213/1-214).

[1] ذكره الرازي في: مفاتيح الغيب (278/32) بلا سند ولم يذكر تخريجه، وبنحوه في: تفسير روح البيان: لإسماعيل حقي: 505/10-506. وقارن بتفسير: مراح لبيد لكشف معنى القرآن المجيد: لمحمد بن عمر نووي الجاوي (ت 1316 هـ)، تحقيق: محمد أمين الصناوي، دار الكتب العلمية – بيروت، ط/1- 1417 هـ: 661/2. وانظر تفسير الآلوسي (457/15) حكاه وقال: "ذكره الإمام [الرازي] وهو لعمري إمام في نقل مثل =

وبيان ذلك كما جاء في حاشية تفسير الرازي أن: "دلالة الحديث على أهمية صلاة العصر واضحة، أي أن اهتمام المرأة العظيم الذي بدا بالبحث والسؤال عن رسول الله جعل الرسول يظن أنها تسأله عن أعظم الأشياء وهو صلاة العصر لا هذه الأشياء المعلومة أحكامها من الدين، ولعل هذه الحادثة كانت بقرب نزول سورة النصر، أو قول الرسول تبكيت للمرأة على سؤالها عن المعاصي لا عن الطاعات". (قلت): ما بني على باطل فهو باطل.

***

تم بحمد الله تفسير سورة العصر،
ويليه تفسير آية من سورة الروم.

= ذلك مما لا يعول عليه عند أئمة الحديث فإياك والاقتداء به". وعلق على قول اللألوسي الشيخ عبد الكريم الخضير؛ وقال: "أورد [الرازي] هذا الخبر، ولا أصل له، ولا وجود له في دواوين الإسلام" (شرح ألفية العراقي: للخضير: 31/15، بتصرف بسيط)، وقال أيضا: "حديث موضوع تفرد [الرازي] بذكره في تفسيره"، (انظر: شرح صحيح البخاري: للخضير: 8/4، بتصرف بسيط)، وهي قصة سخيفة تبدو عليها آثار الكذب.

﴿تفسير آية الفساد في سورة الروم﴾

قال ﷻ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُوا۟ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ [سورة الروم].

المناسبة:

ووجه اتصال هذه الآية المكية بسورة العصر هو أن خسر العباد في سورة العصر بسبب الفساد النظري العلمي الإيماني بظلم الإنسان لنفسه بشركه بالله، وفساد البلاد في هذه الآية بسبب المفسدين للنظام الكوني العملي بظلم الإنسان لغيره.

ومن وجه آخر فإن قوله ﷻ: ﴿وَالْعَصْرِ ﴿١﴾ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ﴿٢﴾﴾ [العصر: 1-2]، فيه ذكر لصفات الفاسدين المفسدين، –مصدقا لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: 27]– وكيف نتقي الفساد، وفي قوله: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ﴾ ذكر نتيجت فسادهم وإفسادهم وكيف ننجوا منها بالتوبة.

وجه تعلق هذه الآية بما قبلها –من سورة الروم– هو أن الله ﷻ بعد أن ذكر أن المشركين عبدوا مع الله سواه، وأشركوا به غيره، والشرك سبب

الفساد، كما يرشد إلى ذلك قوله ﷻ: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22] أعقب ذلك ببيان أن الناس قد انتهكوا حرمات الله، واجترحوا المعاصي، وفشا بينهم الظلم والطمع، وأكل القوي مال الضعيف، فصب عليهم ربهم سوط عذابه، فكثرت الحروب[1].

"وفي الآية التالية يأمر الله الناس بالسير في الأرض ليروا شواهد كثيرة حية من مسألة ظهور الفساد في الأرض بسبب المعاصي والذنوب من قبل الناس. ويوصي نبيه ﷺ أن يأمرهم بذلك، فيقول: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ﴾ [الروم: 42] انظروا قصور الظالمين المتهدمة، وأبراجها المتداعية والخزائن المطموسة، وجماعاتهم المتفرقة، ثم انظروا إلى قبورهم المدروسة وعظامهم النخرة! وانظروا عاقبة أمر الظلم والشرك وما آلا إليه. أجل قَبْلُ ﴿كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ [الروم: 42]

---

[1] انظر: تفسير المراغي، وقارن بتفسير المحرر الوجيز: لابن عطية، وتفسير جامع البيان: للطبري، والتفسير الكبير: للرازي، وتفسير روح المعاني: للآلوسي، والتفسير المنير: للزحيلي. وقارن بقول الشيرازي: "كان الكلام في الآيات السابقة عن الشرك، ونعلم أن أساس جميع المفاسد هو الغفلة عن أصل التوحيد والتوجه نحو الشرك، لذلك فإن القرآن –في هذه الآية محل البحث– يتحدث عن ظهور الفساد في الأرض بسبب أعمال الناس أنفسهم، فيقول: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾" (الأمثل: 158/10).

والشرك أساس الفساد والانحراف والضلال![1]".

ويروي الطبري في تفسيره بسنده عن قتادة قوله: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ قال: "هذا قبل أن يبعث الله نبيه محمدا ﷺ، امتلأت ضلالة وظلما، فلما بعث الله نبيه رجع راجعون من الناس".

فالآية تشير إلى مصائب نزلت ببلاد المشركين وعطلت منافعها، ولعلها مما نشأ عن الحرب بين الروم وفارس، وكان العرب منقسمين بين أنصار هؤلاء وأنصار أولئك؛ فكان من جراء ذلك أن انقطعت سبل الأسفار في البر والبحر فتعطلت التجارة وقلت الأقوات بمكة والحجاز كما يقتضيه سوق هذه الموعظة في هذه السورة المفتتحة بـ: ﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ﴾ [الروم: 2][2].

وقيل: كان أوائل البعثة وذلك أن كفار قريش فعلوا ما فعلوا من المعاصي والإصرار على الشرك وإيذاء الرسول ﷺ؛ فدعا ﷺ عليهم؛ فأقحطوا وحل بهم من البلاء ما حل فأخبر الله ﷻ أن ذلك بسبب معاصيهم؛ ليذيقهم

---

[1] الأمثل: 160/10.

[2] انظر: تفسير التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور. وقارن بقول الشيرازي: "والآية الآنفة الذكر تبين المعنى الواسع حول ارتباط الفساد بالذنب، الذي لا يختص بأرض مكة والحجاز، ولا بعصر النبي ﷺ، بل هو من قبيل القضية الحقيقية التي تبين العلاقة بين الموضوع والمحمول! وبعبارة أخرى: حيثما ظهر الفساد فهو انعكاس لأعمال الناس فيه" (الأمثل: 158/10).

بعض الذي عملوا؛ لعلهم يرجعون، وفسر هذا القائل: الناس بكفار قريش[1].

وقيل: كان في زمان سابق على زمان النزول، أعم من أن يكون الزمان الذي قبيل البعثة أو بعيدها أو غير ذلك، وحكم الآية عام في كل فساد يظهر إلى يوم القيامة[2].

قال الشعراوي في تفسيره: "فكلما ظهر الفساد حلت العقوبة، فخذوها في الكون آية من آيات الله إلى قيام الساعةّ؛ فظهر الفساد قديما... ثم سيظهر الفساد حديثا، وسيحدث العقاب، إذن: ليست الأمة الإسلامية بدعا في هذه المسألة".

وإن موقع هذه الآية ومعناها صالح لعدة وجوه من الموعظة، وهي

---

[1] "وعلى فرض أن يكون هذا الكلام صحيحا تاريخيا، إلا أنه بيان لأحد المصاديق ولا يحدد معنى الآية في مسألة ارتباط الفساد بالذنب، فهي ليست محددة بذلك الزمان والمكان، ولا بالجدب وانقطاع الغيث" (الأمثل: للشيرازي: 159/10).

[2] انظر: تفسير روح المعاني: للآلوسي، وقارن بقول ابن برجان في تفسيره: "أرى –والله أعلم بما ينزل– أن ذلك إخبار منه مما تقدم في الأمم الخالية والقرون الماضية، وأن تلك هي سنة فيهم؛ لذلك –وهو أعلم– أتبعها بقوله: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُشْرِكِينَ﴾ [الروم: 42]، فكان في ذلك تعريض بما هو مصيب هذه الأمة من إحاطة الفتن، وأن ذلك بما كسبت أيدي الناس، وأن دواء ذلك الداء بالتوجه لله بالدين القيم".

من جوامع كلم القرآن. والمقصد منها هو "الموعظة بالحوادث ماضيها وحاضرها" للإقلاع عن الإشراك وعن تكذيب الرسول ﷺ[1].

الخلاصة: هي أن الآية بظاهر لفظها عامة لا تختص بزمان دون زمان أو بمكان أو بواقعه خاصة، كما قال الطباطبائي في الميزان.

* * *

[1] انظر: التفسير الكبير: للرازي، وتفسير المحرر الوجيز: لابن عطية، وتفسير التحرير والتنوير: لابن عاشور.

الحياة تصلح بالطاعة وتفسد بالمعصية

❁ قوله ﷻ: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ﴾

مادة (ظهر) لغة: ظهْر كل شيء؛ خلاف بطنه، كظهْر الأرض وبطنها، ومما يجمع الظهر من البروز والقوة كان أصل معاني المادة كلها، ومن بروز الظهر في الأشياء قيل: ظهر -كنصر- أي: خرج على الظهر فبدا وتبين، والظهر: بدو الشيء الخفي، وأظهرته: بينته، وظهر السطح -متعديا-: علاه، وكذلك ظهر عليه: صار فوقه، وظهر عليه: قوى وتمكن، والمعنى المحوري: بروز من أثناء أو باطن إلى سطح مع شدة وغلظ أو قوة، ومن البروز بقوة من أثناء شيء عبر بالتركيب عن نحو الانكشاف ظهر ظهورا: برز بعد الخفاء، وأظهر الشيء: بينه وأبرزه، وظَهَرَ الشّيءُ أصله: أن يحصل شيء على ظَهْرِ الأرضِ فلا يخفى، وبَطَنَ إذا حصل في بطنان الأرض فيخفى، ثمّ صار مستعملا في كلّ بارز مبصر بالبصر والبصيرة، وقوله ﷻ: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾، أي: كثر وشاع[1].

واختلف المفسرون في المراد بالظهور في الآية على قولين: فمن

---

[1] قارن بمادة (ظهر) في: مفردات غريب ألفاظ القرآن: للراغب الأصفهاني، والمعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم: لمحمد حسن حسن جبل، ص: 1381-1382، ومخطوطة الجمل: لحسن عز الدين الجمل: 3/81-82.

حمل اللفظ على الحقيقة قال معناه البيان والإيضاح؛ أي: ظهور أثر الفساد الموجود، ومن حمل اللفظ على المجاز قال معناه الحدوث[1] والإيجاد؛ أي: ظهور الفساد نفسه بعد أن كان معدوما[2].

قال الشعراوي في تفسيره: "ظهر: بان ووضح. **والظهور: أن يبين شيء موجود بالفعل لكنا لا نراه،** وما دام الحق ﷻ قال: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ﴾ فلا بد أن الفساد كان موجودا، لكن أصحاب الفساد عموه وجنوه إلى أن فقس وفرخ في المجتمع. والفساد لا يظهر إنما يظهر أثره"، وبنحوه عند العثيمين في تفسيره.

وهو خلافا لما ذهب إليه الطاهر بن عاشور بقوله: "**وأطلق الظهور على حدوث حادث لم يكن،** فشبه ذلك الحدوث بعد العدم بظهور الشيء

---

[1] قال مكي بن أبي طالب: "﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ﴾: الحدث" (العمدة في غريب القرآن، ص: 239).

[2] ينبغي علينا هنا أن نفرق بين حالتين تختصان بوجود الشيء: إحداهما أنه قد يوجد الشيء ويكون ظاهرا معروفا منذ لحظة وجوده، والثانية أنه قد يكون موجودا ولكن غير ظاهر ولا معروف، ويكون ظهوره في زمن لا حق، وهو في هذه الحالة موجود مستتر، ثم يظهر بعد ذلك فتضاف صفة ظهوره إلى صفة وجوده حيث يصير موجودا ظاهرا، وحالة الوجود المستتر سابقة، أما حالة الظهور فلاحقة، وعلى هذا فإن كل ما هو موجود ظاهر فإنه يكون موجودا بالضرورة، وليس كل موجود يكون ظاهرا بالضرورة.

الذي كان مختفيا[1].

ومحمل صيغة فعل ﴿ظَهَرَ﴾ على حقيقتها من المضي يقتضي أن الفساد حصل وأنه ليس بمستقبل؛ فيكون إشارة إلى فساد مشاهد أو محقق الوقوع بالأخبار المتواترة، وقد تحمل صيغة الماضي على معنى توقع حصول الفساد والإنذار به فكأنه قد وقع".

وقال أيضا: "ويعلم أن مراتب ظهور الفساد حاصلة على مقادير ما كسبت أيدي الناس"[2]. كما قال بعض السلف: "كلما أحدثتم ذنبا أحدث الله لكم من سلطانه عقوبة"[3]، وهو ما قصده الخليفة الأموي الراشد عمر ابن عبد العزيز بقوله: "تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من فجور"[4]، وزياد

---

[1] وتبعه على ذلك المفسر الليبي: أحمد عبد السلام أبو مزيريق، في تفسيره: إرشاد الحيران إلى توجيهات القرآن، دار المدار الإسلامي، ط/1- 2011 م، 319/9.

[2] تفسير التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور.

[3] الجواب الكافي: لابن القيم، ص: 74.

[4] لم أجده مسندا، وابن حزم في الإحكام شنع وكذب من نسب هذه المقولة للخليفة العادل عمر بن عبد العزيز، والبعض يعزوها للإمام مالك في: الموطأ؛ كاللخمي في: التبصرة، وابن حجر في: الفتح، والزرقاني في: شرح الموطأ، والأغلبية تنسبها نسبة مشهورة لعمر ابن عبد العزيز، وتَرِد هذه القاعدة كثيرا في كتب الفقهاء لا سيما المالكية منهم: كالرسالة: للقيرواني، والمقدمات الممهدات: لابن رشد الجد، وكتابَي: الفروق، والدخيرة: للقرافي، وتبصرة الحكام: لابن فرحون، والاعتصام: للشاطبي، وغيرهم الكثير.

بن أبيه في خطبته البتراء قال لأهل البصرة: "وقد أحدثتم أحداثا لم تكن، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة"[1].

والظاهر من الآية: ظهور ما يصح إطلاق اسم الفساد عليه، سواء كان راجعًا إلى أفعال بني آدم من معاصيهم، واقترافهم السيئات، وتقاطعهم وتظالمهم وتقاتلهم، أو راجعًا إلى ما هو من جهة الله سبحانه، بسبب ذنوبهم؛ أي ظهر أثر الفساد كالقحط وكثرة الخوف وهو عقوبة أهل الفساد.

ومادة (الفَسَادُ) لغة: الجدب في البر، والقحط في البحر. فسد الشيء: بطل واضمحل، والمعنى المحوري: ذهاب نفع الشيء المقصود منه (أي تلفه وهلاكه) لحدة ضارة تسري في أثنائه: كالجدب في الأرض؛ فالفساد: خروج الشيء عن حال الاعتدال والاستقامة وكونه منتفعا به، قليلا كان الخروج عنه أو كثيرا، ويستعمل ذلك في النّفس، والبدن، والأشياء الخارجة عن الاستقامة، ويضادّه الصّلاح[2].

واصطلاحا عرفه محمد رواس قلعه جي في معجم لغة الفقهاء (41/1) بأنه: "إخراج الشيء عن أن يكون منتفعا به منفعة مطلوبة منه

---

[1] البيان والتبين: 41/2، وانظر: تاريخ الطبري، والكامل في التاريخ: لابن الأثير.

[2] قارن بمادة (فسد) في: مفردات غريب القرآن: للراغب الأصفهاني، والمعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم: لمحمد حسن حسن جبل، ص: 1672.

عادة"، وهذا التعريف ينسجم مع مفهوم الفساد في القرآن، خاصة وأنه يشمل كل ما من شأنه تخريب وإفساد، وأيضا يتفق مع أصل الفساد لغة[1].

وقيل الفساد هاهنا: "هو على الحذف، والتقدير: ظهر عقاب الفساد في البر والبحر"[2].

واختلف المفسرون في معنى الفساد والبر والبحر ها هنا[3]:

---

[1] موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم: لمجموعة من الباحثين، حرف: الفاء، مادة: الفساد، (294/26). وجاء تعريف الفساد فلسفيا في معجم الدوحة التاريخي للغة العربية بأنه: "التَّغَيُّرُ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الأَشْيَاءِ الطَّبِيعِيَّةِ، وَيُؤَدِّي إِلَى فَنَائِهَا"، رابط الموقع الإلكتروني:

https://www.dohadictionary.org/dictionary/%D8%A7%D9%84%D9%81%D8%B3%D8%A7%D8%AF

[2] إعراب القرآن: لإسماعيل الأصبهاني.

[3] "بعض المفسرين يسوقون في صدد هذه الآية أقوالا واحتمالات لا تخلو من غرابة وتجعلها منفصلة عن سابقتها ولاحقتها بسبب التعبير بالفساد في البحر والبر، ومن ذلك قتل قابيل أخاه هابيل، واغتصاب الملك السفن في البحر وهو ما حكته إحدى آيات سورة الكهف، وملوحة مياه البحار بعد أن كانت عذبة، وخلو أصداف اللؤلؤ من اللؤلؤ وعدوان الأسد على البقر والغنم بعد قتل هابيل ولم يكن يفعل ذلك إلخ. غير أن إمعان النظر في الآيات الثلاث يظهر انسجامها مع بعضها انسجاما تاما، ومن المحتمل أن يكون وقع في ظروف نزول أزمات في الأمن وفي الغذاء والأمطار في الحجاز أو في تخومها؛ فكان ذلك مناسبة لتنبيه الناس إلى أنه من تسليط الله عليهم بسبب آثامهم، ولحملهم =

والفساد الذي أشار القرآن إلى ظهوره يحتمل أن يكون راجعا إلى المعاصي التي اقترفها الناس، ويحتمل أن يكون الفساد راجعا إلى عقاب الله للعباد بسبب ذنوبهم. وذكروا في ﴿ٱلْفَسَادُ﴾ سبعة وجوه[1]:

الوجه الأول: يجوز أن يكون المراد بالفساد: الشرك [وهو أعظم

= على الارعواء والرجوع إلى الله والحق. وتعبير ظهر الفساد في البر والبحر يرجح أن يكون تعبيرا أسلوبيا يقصد به شيوع الفساد وشموله". (التفسير الحديث: لمحمد عزة دروزة) اهـ. (قلت): وقد تأثر بهذا الكلام محمد عابد الجابري في كتابه التفسير الواضح حسب ترتيب النزول لكنه كان أكثر وضوحا فيما ذهب إليه إذ قال: "اختلفوا –المفسرون– في تحديد معنى كلمة الفساد في هذه الآية اختلافا كبيرا، وما قالوه في هذا وذاك لا تبرز منه الصلة بين هذه الآية مع التي قبلها والتي بعدها، وبالتالي فلا سياق يجمع بينها. أما نحن فنرى أن السياق يقتضي الفهم الذي أثبتناه [بقولنا]: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ﴾ آثار القرى المهدمة ﴿فِى الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى النَّاسِ﴾ عقابا للأقوام التي كذبت رسلها ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا﴾ من ظلم وطغيان وهذا الفساد الذي قاموا به بقيت آثاره واضحة في القرى المهدمة وقد تركناها ماثلة أمام أنظار قريش ومن مثلهم ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ لعل مشركي مكة بمشاهدته تلك الآثار يرجعون عن كفرهم" (فهم القرآن الحكيم: لمحمد عابد الجبري، مطبعة دار النشر المغربية – الدار البيضاء، ط– 2008 م، القسم الثاني، ص: 344–345). (قلت): وكما يظهر لك فإن تأويل الجبري فيه شيء من التعسف في لي عنق الآية لحملها على التفسير المذكور.

[1] انظر: زاد المسير: لابن الجوزي، وتفسير النكت والعيون: للماوردي، وتفسير الجامع لأحكام القرآن: للقرطبي، وتفسير المحرر الوجيز: لابن عطية.

الفساد]، قاله قتادة والسدي فتكون هذه الآية متصلة بقوله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ۖ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَفْعَلُ مِن ذَٰلِكُم مِّن شَىْءٍ﴾ [الروم: 40]، فتكون الجملة إتماما للاستدلال على وحدانية الله ﷻ تنبيها على أن الله خلق العالم سالما من الإشراك وأن الإشراك ظهر بما كسبت أيدي الناس من صنيعهم ... فذكر البر والبحر؛ لتعميم الجهات بمعنى: ظهر الفساد في جميع الأقطار الواقعة في البر والواقعة في الجزائر والشطوط[1].

واعلم أن كل فساد يكون فهو بسبب الشرك، لكن الشرك قد يكون في العمل دون القول والاعتقاد فيسمى فسقا وعصيانا؛ وذلك لأن المعصية فعل لا يكون لله بل يكون للنفس، فالفاسق مشرك بالله بفعله، غاية ما في الباب أن الشرك بالفعل لا يوجب الخلود؛ لأن أصل المرء قلبه ولسانه، فإذا لم يوجد منهما إلا التوحيد يزول الشرك البدني بسببهما[2]، ومأخذ الوجه: التفسير بالمثال.

وذكر ابن كثير في تفسيره عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه فسر الفساد بالشرك، ثم علق بقوله: "وفيه نظر"؛ إذ لا دليل على أنه المراد

---

(1) انظر: تفسير التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور.

(2) انظر: التفسير الكبير: للرازي.

بخصوصه، وبنحوه قال الشوكاني.

الوجه الثاني: الفساد: "ارتكاب المعاصي، والذنوب، والظلم، وقطع السبيل" في البر فتسده، أي: صار هذا العمل مانعا من الزرع والعمارات والتجارات، وبنحوه قال أبو العالية، وابن عباس، وعبد الرحمن بن زيد ابن أسلم، والنحاس وقال: "فهذا هو الفساد على الحقيقة"[1]. وعلى تفسير الفساد بالمعاصي فالمعنى ظهرت المعاصي والذنوب في بر الأرض وبحرها بكسب أيدي الناس إياها وفعلهم لما نهاهم الله عنه، وبنحوه قال الطبري والآلوسي وعبد القاهر الجرجاني في تفسيره، ومأخذ الوجه: التفسير بالمثال، وقد يعبر عنه بالميل مع الكفار.

ورجح ابن القيم مستندا إلى السياق أن المراد بالفساد: هو الذنوب وموجباتها، فقال: "والظاهر –والله أعلم– أن الفساد المراد به: الذنوب وموجباتها، ويدل عليه قوله ﷻ: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ فهذا حالنا، وإنما أذاقنا الشيء اليسير من أعمالنا، ولو أذاقنا كل أعمالنا لما ترك على ظهرها من دابة"[2].

وذكر تفسير عبد الرحمن بن زيد بن أسلم للفساد بالذنوب، ثم علق

---

[1] انظر: تفسير جامع أحكام القرآن: للقرطبي، وتفسير البحر المحيط: لابن حيان.

[2] الجواب الكافي لمن سأل عن الداء والدواء الشافي: لابن قيم الجوزية، ص: 74.

عليه بقوله: "قلت: أراد أن الذنوب سبب الفساد الذي ظهر، وإن أراد: أن الفساد الذي ظهر هو الذنوب نفسها؛ فيكون اللام في قوله: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ لام العاقبة والتعليل"[1]. (قلت): والقول بأن المراد بالفساد هو الخراب أي الفساد بعينه وهو ضد الصلاح، هو وجه ثامن؛ ومأخذه المعنى المشهور للفظ في اللغة.

الوجه الثالث: الفساد: "الجدب وقحط المطر وقلة النبات والعشب وذهاب البركة"، قاله يحيى بن سلام وعطية، وبنحوه قال ابن عباس قال: "هو نقصان البركة بأعمال العباد كي يتوبوا". وقال النحاس: "وهو أحسن ما قيل في الآية"[2]. وقال: "أن الفساد في البحر انقطاع صيده بذنوب بني آدم". وقال أيضا: "وظهور الفساد فيهما بارتفاع البركات، ونزول رزايا، وحدوث فتن، وتقلب عدو كافر، وهذه الثلاثة توجد في البر والبحر"، وبنحوه عند عبد القاهر الجرجاني في تفسيره، وقال إنه الظاهر من فساد البر والبحر[3]، وعلى هذا والذي يليه الفساد بمعنى العقوبة لا الذنب والمعصية، ومأخذ الوجه: التفسير بالمثال.

---

(1) الجواب الكافي لمن سأل عن الداء والدواء الشافي: لابن قيم الجوزية، ص: 74.

(2) معاني القرآن: للنحاس، وجامع أحكام القرآن: للقرطبي.

(3) انظر: تفسير البحر المحيط: لابن حيان، وتفسير المحرر الوجيز: لابن عطية، وتفسير جامع البيان: للطبري.

الرابع: الفساد: "كساد الأسعار وقلة المعاش". أي: ظهر قلة الغيث[1] وغلاء السعر، ومأخذ الوجه: التفسير بالمثال.

---

[1] يذكر هنا بعض المفسرين أن من الفساد الواقع في البحر قلة استخراج اللؤلؤ من أصداف المحار في قاع البحر لقلة المطر، قال الطبري في تفسيره: "حدثنا ابن وكيع، قال: ثنا يزيد بن هارون، عن فضيل بن مرزوق، عن عطية ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ قال: قلت: هذا البرّ، والبحر أيّ فساد فيه؟ قال: فقال: إذا قلّ المطر، قل الغوص" اهـ. (قلت): لعله يشير إلى الأثر الذي رواه الطبري في تفسير سورة الرحمن مِنْ غير وجه "عَنِ الْأَعْمَشُ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الرازي، عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «إن السماء إذا أمطرت، فتحت الأصداف أفواهها، فمنها اللؤلؤ»، وفي رواية: «إذا نزل القطر من السماء تفتحت الأصداف فكان لؤلؤا»، وفي أخرى بلفظ: «إن السماء إذا أمطرت تفتحت لها الأصداف، فما وقع فيها من مطر فهو لؤلؤ»"، وجاء نحوه في تفسير ابن كثير لسورة الرحمن: "عن ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ سِنَانٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ ابْنُ مَهْدِيٍّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ عَنِ الْأَعْمَشُ عَن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، عَنْ سَعِيدِ ابْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: «إِذَا أَمْطَرَتِ السَّمَاءُ فَتَحَتِ الْأَصْدَافُ فِي الْبَحْرِ أَفْوَاهَهَا فَمَا وَقَعَ فِيهَا، يَعْنِي مِنْ قَطْرٍ فَهُوَ اللُّؤْلُؤُ»". قال ابن كثير: "إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ"، (قلت): لا يلزم من صحة الإسناد صحة المتن، وعليه فإن معناه لا يصح وإن صح إسناده، إذ ثبت علميا أن اللؤلؤ يتشكل نتيجةً لدخول جسمٍ غريبٍ إلى جوف المحارة –فبفعل ترسب حبوب الرمال مثلا بين قشرة صدفتها وغلافها اللّحمي الرخو– حيث تتجمع لتصبح مادة مهيجة، فتبدأ المحارة باستشعار وجود حبيبات الرمال، ولأجل أن تحمي المحارة نفسها من هذا الدّخيل الصّغير، تحيطه فورا بإفراز مادّةٍ كلسيّةٍ لتغطيه طبقة بعد طبقة، وعندما يتم تراكم الطبقات فإن اللؤلؤ يتكون بعد أربع سنوات تقريبا.

وهذا القول والذي سبقه مجاز في الفساد قاله النحاس في كتابه إعراب القرآن[1].

الوجه الخامس: الفساد: ظهور ولاة السوء.

قال ابن الموصلي في فساد البلاد والعباد بالسلطان الجائر: "وإذا جار السلطان انتشر الجور في البلاد وعم العباد، فرقت أديانهم، واضمحلت مروءاتهم، وقست قلوبهم، وفشت فيهم المعاصي، وذهبت أماناتهم، فضعفت النفوس، وقنطت القلوب، فضعفوا عن إقامة الحق، فتعاطوا الباطل، وبخسوا الكيل والميزان، وروجوا البهرج، فرفعت منهم البركة، وأمسكت السماء غيثها، ولم تخرج الأرض زرعها ونباتها، فقل في أيديهم الحطام، فقنطوا وأمسكوا الفضل الموجود، وتناجزوا على المفقود، فمنعوا الزكوات المفروضة، وبخلوا بالمواساة المسنونة، وقبضوا أيديهم عن المكارم، وفشت فيهم الأيمان الكاذبة، والختل في البيع والشراء، والمكر والحيل في القضاء والاقتضاء، فيظل أحدهم عاريا من محاسن دينه، متجردا من جلباب مروءته"[2].

ويقال شيئان إذا صلح أحدهما صلح الآخر السلطان والرعية، ويُروى أن خليفة للمسلمين سأل أحد الصالحين وقال له: "كيف الزمان؟ فقال: أنت

---

[1] انظر: تفسير جامع أحكام القرآن: للقرطبي، وتفسير البحر المحيط: لابن حيان.

[2] حسن السلوك الحافظ دولة الملوك: لابن الموصلي، ص: 65-66.

الزمان؛ فإن صلحت صلح الزمان، وإن فسدت فسد الزمان"[1].

الوجه السادس: يحتمل أن المراد بالفساد: "خوف الطوفان" في البر والبحر، قاله بعض المفسرين[2].

الوجه السابع: قيل ظهور الفساد في البر: بقتل أحد بني آدم لأخيه، يعني أن أول فساد ظهر في البر قتل قابيل أخاه هابيل، وفي البحر: ذكر أن أول معصية في البحر ملك جائر عصر موسى، والخضر عليهما السلام يأخذ كل سفينة تمر عليه غصبا –حتى ضرب به المثل قال الميداني في مجمع الأمثال: "أظلم من الجُلُنْدَيِّ"[3]–، ذكره الشوكاني منسوبا إلى مجاهد وعكرمة

---

[1] نسبه ابن عبد ربه (العقد الفريد: 8/2) لمعن بن زائدة لما سأله أمير المؤمنين هارون الرشيد، ونسبه الجبرتي (تاريخ عجائب الآثار: 22/1) للأحنف بن قيس لما سأله معاوية. وفي رواية عند ابن الموصلي قال: "وقال سفيان الثوري لأبي جعفر المنصور إني لأعلم رجلا إن صلح صلحت الأمة قال ومن هو قال أنت" (حسن السلوك الحافظ دولة الملوك، ص: 66).

[2] انظر: التفسير الكبير: للرازي.

[3] انظر: تفسير البحر المحيط: لابن حيان، وتفسير المحرر الوجيز: لابن عطية، وتفسير جامع البيان: للطبري.

(قلت): الجُلَنْدِ هو الملك المذكور في سورة الكهف ﴿وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴿٧٩﴾﴾، وقصة السفينة في زمن موسى عليه السلام، وبناء عليه فهو غير جَلَنْدَى الذي كان قبل الإسلام بقليل –وقيل أنه أدرك الإسلام فوجه الرسول ﷺ إليه برسالة مع عمرو ابن=

مولى ابن عباس وقال: "وليت شعري أي دليل دلهما على هذا التخصيص[1] البعيد والتعيين الغريب؟ فإن الآية نزلت على محمد ﷺ"، وحكاه الآلوسي عن ابن عباس وعلق عليه بقوله: "ولعل المراد التمثيل"، لا الحصر؛ أي: أن مأخذ هذا الوجه: التفسير بالمثال.

ويرى الشوكاني أن كل هذه الأقوال هي "تخصيص لا دليل عليه"، وقال: "والظاهر من الآية ظهور ما يصح إطلاق اسم الفساد عليه سواء كان راجعا إلى أفعال بني آدم من معاصيهم، واقترافهم السيئات، وتقاطعهم، وتظالمهم، وتقاتلهم، أو راجعا إلى ما هو من جهة الله سبحانه بسبب ذنوبهم، كالقحط، وكثرة الخوف، والمُوتان، ونقصان الذرائع، ونقصان الثمار".

= العاص سنة 9 هـ/ 630 م-، والراجح أن الجُلَنْدَا لقب لملوك عمان، وقيل اسم لرجل من الأزد، وهو لفظ معرب اختلفت المصادر في رسمه والقصر فيه هو المشهور، ومن معانيه في اللغة العربية الفجور، وللدكتور حمد بن صراي بحث قيم بعنوان: (الجلندى شخصية عابرة للتاريخ والأمكنة يكتنفها الغموض)، منشور بموقع البيان الإماراتي، بتاريخ: 5 أبريل 2018، رابط المقال:
https://www.albayan.ae/five-senses/culture/2018-04-05-1.3229423

[1] وذكر نحوه الشيرازي في تفسيره وقال: "وبالطبع فإن من الممكن أن تكون مصاديق الآية مثل هؤلاء الأفراد الذين يتسلطون على الناس نتيجة الدنيا والمجاملة وجر الناس للذل، ولكن من المسلم به أن هذا المصداق لا يعني تخصيص مفهوم الآية". (الأمثل: 159/10).

وعلق القرطبي على هذه الأقوال قائلا: "والمعنى كله متقارب". وهو ما ذهب إليه الزحيلي في تفسيره المنير بقوله: "الفساد: الخلل في الأشياء، كالجدب والقحط وقلة النبات، وكثرة الحرق والغرق وأخذ المال ظلما وكثرة المضار وقلة المنافع".

وهل الفساد هنا يراد به الفساد الحسي أو يشمل الفساد الحسي والمعنوي؟

[قال العثيمين]: "الصحيح أنه يشمل الفساد الحسي والمعنوي، فالحسي مثل فساد الزروع بيبسها وتلفها بالعواصف والأمطار المغرقة والبرق المتلف وكذلك فساد المواشي بهلاكها ومرضها، وفساد الثمار بنقصها وما أشبه ذلك، والمعنوي هو كثرة المعاصي والفسوق"[1].

۞ قوله ﷻ: ﴿فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾

إن "أصل (الْبَرِّ) من البِرّ، لأنّه يبر بصلاح المقام فيه، وأصل (البحر) الشق، ومنه (البحيرة). ومنه قيل (بحر) لأنّه شق في الأرض. ثم كثر فسمي الماء الملح بحرا"[2].

---

[1] تفسير القرآن الكريم (سورة الروم): للعثيمين، ص: 253، بتصرف.

[2] إعراب القرآن: لإسماعيل الأصبهاني. (قلت): الأحرف (ب، ح، ر) كيفما اجتمعت أعطت معنى الضخامة والاتساع (بحر، رحب، حبر، حرب...).

وذكر المفسرون في معنى ﴿ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ في هذه الآية، ستة أقاويل[1]:

القول الأول: أن البر: الفيافي ومواضع القبائل وأهل الصحاري والعمور، والبحر: جمع بحرة، أي: البلدة والأمصار والمدن والقرى العامرة، قاله عكرمة وقتادة، فإن العرب تسمي المدائن بحورا؛ لكون مبنى عمارتها على الماء، ويؤيد هذا قراءة عكرمة: "والبحور" بالجمع، ورويت عن ابن

---

[1] انظر: تفسير زاد المسير: لابن الجوزي، وتفسير النكت والعيون: للماوردي، وتفسير جامع أحكام القرآن: للقرطبي، وتفسير المحرر الوجيز: لابن عطية. وقال الطباطبائي في الميزان: "فالمراد بالبرّ والبحر معناهما المعروف ويستوعبان سطح الكرة الأرضية... ولهم في الآية تفاسير مختلفة عجيبة كقول بعضهم: المراد بالأرض أرض مكة، وقول بعضهم: المراد بالبر القفار التي لا يجري فيها نهر وبالبحر كل قرية على شاطئ نهر عظيم، وقول بعضهم: البرّ الفيافي ومواضع القبائل والبحر والسواحل والمدن التي عند البحر والنهر، وقول بعضهم: البر البرية والبحر المواضع المخصبة الخضرة، وقول بعضهم: إن هناك مضافاً محذوفاً والتقدير في البرّ ومدن البحر، ولعل الذي دعاهم إلى هذه الأقاويل ما ورد أن الآية ناظرة إلى القحط الذي وقع بمكة إثر دعاء النبي ﷺ على قريش لما لجُّوا في كفرهم وداموا على عنادهم فأرادوا تطبيق الآية على سبب النزول فوقعوا فيما وقعوا من التكلف. وقول بعضهم: إن المراد بالفساد في البرّ قتل ابن آدم أخاه وفي البحر أخذ كل سفينة غصبا. وهو كما ترى".

عباس[1]، وعليه مشى عفيف طباره.

ورجحه ابن كثير في تفسيره مستندا إلى السنة بقوله: "والقول الأول أظهر، وعليه الأكثرون، ويؤيده ما ذكره محمد بن إسحاق في السيرة: أن رسول الله ﷺ صالح ملك أيلة، وكتب إليه ببحره، يعني: ببلده". قيل: ومنه قول سعد بن عبادة في شأن عبد الله بن أبي بن سلول: "ولقد أجمع أهل هذه البحرة[2] على أن يتوجوه". يعني بالبحرة: مدينة يثرب. قال الطاهر ابن عاشور: "وفيه بعد، وكأن الذي دعا إلى سلوك هذا الوجه في إطلاق البحر أنه لم يعرف أنه حدث اختلال في سير الناس في البحر وقلة فيما يخرج منه، وقد ذكر أهل السير أن قريشا أصيبوا بقحط وأكلوا الميتة والعظام، ولم يذكروا أنهم تعطلت أسفارهم في البحر ولا انقطعت عنهم حيتان البحر، على أنهم ما كانوا يعرفون بالاقتيات من الحيتان"[3].

القول الثاني: أن البر أهل العمود، والبحر أهل القرى والريف، قاله قتادة. "وبه فسر أبو علي قوله ﷻ: ظهر الفساد في البر والبحر؛ لأن البحر

---

[1] انظر: تفسير المحرر الوجيز: لابن عطية، وقارن بتفسير البحر المحيط: لابن حيان، وقارن: بأفراد كلمات القرآن العزيز: لابن فارس.

[2] وعند الآلوسي في تفسيره: بلفظ (البحيرة).

[3] انظر: تفسير التحرير والتنوير: لابن عاشور، وقارن بتفسير المحرر: لابن عطية.

الذي هو الماء لا يظهر فيه فساد ولا صلاح"[1].

القول الثالث: أن البر بادية الأعراب، قاله الضحاك والبحر الجزائر، قاله عطاء.

القول الرابع: أن البر ما كان من المدن والقرى على غير نهر، والبحر ما كان من المدن والقرى على شط ماء نهر جار، قاله ابن عباس، والزجاج، ومجاهد، وقال معناه النحاس.

ولا يخفى أن هذا القول والذي سبقه متداخلان لقول مجاهد: البر: البلاد البعيدة من البحر، والبحر: السواحل والجزر والمدن التي على ضفة البحر والأنهار الكبار.

القول الخامس: أن المراد بالبر: أهل البوادي، وبالبحر: أهل المدن والقرى والريف، قاله قتادة، وقال معناه النحاس، وذكر نحوه ابن الجوزي في كتابه: (نزهة الأعين).

القول السادس: أن المراد ظهر البر –الأرض، الأمصار وغيرها– والبحر المعروفان المشهوران في اللغة وعند الناس، قاله الحسن بن أبي الحسن البصري، وبه قال الطباطبائي، والآلوسي في تفسيره قال: "وأيًّا ما

---

[1] لسان العرب: لابن منظور: 44/4.

كان فالبر والبحر على ظاهرهما"، وهو الظاهر عند ابن حيان، ورجحه ابن عطية مستندا إلى الأشهر لغة، وهو الصحيح عنده وعند ابن جزي، وهو الأولى عند الشوكاني، ورجحه القرطبي أيضا وعلق قائلا: "لا ما قاله بعض العباد المتعمقين في غوامض المعاني وهو وجهان:

أحدهما: أن البر: النفس، والبحر: القلب، قال به القشيري في تفسيره: (لطائف الإشارات).

الثاني: أن البر: اللسان، والبحر: القلب؛ لظهور ما على اللسان وخفاء ما في القلب[1]"، قال الماوردي: "وهو بعيد". وضعفه أيضا ابن جزي في تفسيره: (التسهيل).

وقول ابن فارس[2]: "كلُّ ما في القرآنِ مِنْ ذِكْرِ البَرِّ والبَحْرِ فإنّه يُرادُ بالبحر: الماءُ، وبالبَرِّ: التّرابُ اليابسُ، غيرَ واحدٍ في سورة الروم: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾، فإنّه يعني: البريّة والعمرانَ". قلت بناء على ما سبق

---

[1] انظر: تفسير جامع البيان: الطبري، وتفسير زاد المسير: لابن الجوزي، وتفسير النكت والعيون: للماوردي، وتفسير جامع أحكام القرآن: للقرطبي، وتفسير البحر المحيط: لابن حيان، وتفسير المحرر الوجيز: لابن عطية.

[2] أفراد كلمات القرآن العزيز، ص: 9، وانظر: البرهان في علوم القرآن: للزركشي: (النوع: الرابع)، وقارن: بالكليات: لأبي البقاء.

ذكره في القول السادس فإن هذه الكلية في التفسير مطردة في القرآن ولا استثناء فيها، وهو الصواب عندنا.

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عند الطبري في تفسيره ما رجحه مستندا إلى اللغة قائلا: "أن الله تعالى ذكره، أخبر أن الفساد قد ظهر في البر والبحر عند العرب في الأرض القفار، والبحر بحران: بحر ملح، وبحر عذب، فهما جميعا عندهم بحر، ولم يخصص جل ثناؤه الخبر عن ظهور ذلك في بحر دون بحر، فذلك على ما وقع عليه اسم بحر عذبا كان أو ملحا. إذا كان ذلك كذلك، دخل القرى التي على الأنهار والبحار.

فتأويل الكلام إذن: إذا كان الأمر كما وصفت، ظهرت معاصي الله في كل مكان من بر وبحر". وقوله هذا ينحو نحو الجمع بين القول الأول والثالث والرابع والسادس، وهو ما يظهر جليا في قول الزحيلي في تفسيره المنير: "البر: الجزء اليابس من الأرض، والبحر: الجزء المائي، والمراد: في أهل البر سكان القرى والمدن والفيافي، وأهل البحر سكان السواحل، وركاب البحار".

وعليه مشى العثيمين قال: "الصواب أن المراد بالبر ما سوى البحر، والمراد بالبحر الماء؛ لأن ما ذكرناه هنا أعم مما ذكره المفسر [جلال الدين المحلي في تفسير الجلالين] وغيره وهو الأظهر أيضا، فإن البحر إذا أطلق

في القرآن يراد به الماء"[1].

ومن التفاسير الحديثة في ذلك، قول محمد جواد مغنية: "والذي نفهمه نحن أن البر والبحر كناية عن كثرة الفساد وانتشاره .. وكل ما حرمه الله ونهى عنه فارتكابه جريمة وفساد في الأرض، كالحرب والبغي والإسراف والخلاعة والفجور والخمر والميسر والاستخفاف بفرائض الله وعبادته، وما إلى ذلك"[2].

وكذلك قول الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره: "**الفساد**: سوء الحال، وهو ضد الصلاح، ودل قوله ﷻ: ﴿فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ على أنه سوء الأحوال فيما ينتفع به الناس من خيرات الأرض برها وبحرها.

ثم التعريف في الفساد: إما أن يكون تعريف العهد لفساد معهود لدى المخاطبين.

وإما أن يكون تعريف الجنس[3] الشامل لكل فساد ظهر في حيز

---

(1) تفسير القرآن الكريم (سورة الروم): للعثيمين، ص: 254، بتصرف بسيط.

(2) التفسير الكاشف، لمحمد جواد مغنية: 147/6.

(3) قال الآلوسي في تفسيره: و(أل) في الفساد للجنس أي ظهر جنس الفساد من الجدب والمَوَتَان ونحوهما في جنس البر وجنس البحر بما كسبت أيدي الناس أي بسبب ما فعله الناس من المعاصي والذنوب وشؤمه وهذا كقوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا =

الأرض برها وبحرها أنه فساد في أحوال البر والبحر، لا في أعمال الناس بدليل قوله ﷻ: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وفساد البر: يكون بفقدان منافعه وحدوث مضاره، مثل: حبس الأقوات من الزرع والثمار والكلأ، وفي موتان الحيوان المنتفع به، وفي انتقال الوحوش التي تصاد من جراء قحط الأرض إلى أرضين أخرى، وفي حدوث الجوائح من جراد وحشرات وأمراض.

وفساد البحر: كذلك يظهر في تعطيل منافعه من قلة الحيتان واللؤلؤ والمرجان؛ فقد كانا من أعظم موارد بلاد العرب وكثرة الزوابع الحائلة عن الأسفار في البحر، ونضوب مياه الأنهار وانحباس فيضانها الذي به يستقي الناس".

و"يأخذنا السياق إلى الإشارة إلى ظهور الفساد؛ أي: شاع هذا الفساد، وانتشر في البر والبحر، ويمكن أن يضاف الجو والفضاء أيضا (الذي هو فوق البر والبحر)"[1].

"وفي ذكر الفساد في البحر تصوير دقيق لواقعنا اليوم؛ إذ لم يكن

= كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: 30]، وهو على تفسير الفساد بالجنس ظاهر.

[1] تفسير القرآن بالقرآن: لطه جابر العلواني، ص: 913.

معهودا من قبل، فقد كثرت الفواحش والمنكرات، وأصبحت النساء تستحم عاريات ونصف عاريات، بالإضافة إلى ذلك ما يحصل في السفن السياحية من منكرات يندى الجبين من ذكرها، فذكر الفساد في البحر بجانب الفساد في البر لهو نبوءة للقرآن لما سيحصل في المستقبل من فساد في البحر"[1].

وهل الفساد في أعمال الناس؟ أم في أحوال ما يحيط بهم وينتفعون به؟

فدل على الأول قوله ﷻ: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾، ودل على الثاني قوله ﷻ: ﴿فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾، وظاهر كلام المفسر الطاهر بن عاشور في تفسيره أن الثاني هو الراجح.

وفصَّل الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة ذلك في تفسيره: (معارج التفكر ودقائق التدبر)، مركزا على معنى تلوث البيئة؛ لأن كلمة فساد تشمل "التلوث والتغيرات المناخية" كالجدب أي: التصحر وكل شيء جاوز الحد، قال ﷺ: "وجاء التعبير بالفعل الماضي في قوله ﷻ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ مع أنه لم يكن قد ظهر هذا الفساد إبَّان تنزيل هذا البيان الرباني؛ للدلالة على أن هذا الفساد سيظهر حتما في مستقبل الناس، فتحققه في المستقبل بالنسبة إلى العلم الرباني بمثابة تحققه

[1] روح القرآن الكريم: جزء: العنكبوت (تفسير سورة الروم): لعفيف طباره.

في الماضي؛ لأن علم الله لا يختلف. وهذه الآية من معجزات القرآن الخبرية التي تحدثت عما سيكون، كالذي جاء في أوائل هذه السورة"[1].

❁ قوله ﷻ: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾

مادة "(كسب): الكواسب: الجوارح، وكَسَابِ: اسم للذئب. وكسبت المال: أصبته، المعنى المحوري: جمع الشيء وتحصيله (شيئا بعد شيء) بجهد ما أخذ من حيث كان: كما تأخذ الجوارح (الكلاب والطيور المعلَّمة الصيدَ) فرائسها (مرة بعد أخرى)، وكما يجمع المال من مظانه (شيئا بعد شيء). ومنه: الكسب: طلب الرزق. [...] واستعملت في كسب الحرام، [...] وعمم فقيل في تفسير الكسب: "جر خيرا أو شرا"، [...] وكثرت في غير الخير، لما في الأصل من معنى الجهد، وصيغة الافتعال تقوي ذلك ولا تخلقه"[2].

وفي قوله ﷻ: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ ثلاثة أقوال:

القول الأول: الباء في قوله ﷻ: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ﴾ للسببية، تقديره:

---

[1] معارج التفكر ودقائق التدبر: لعبد الرحمن حسن حبنكة: 169/15.

[2] المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم: لمحمد حسن حسن جبل، ص: 1893-1894، بتصرف.

"جزاء ما كسبته أيدي الناس"، أي: جزاء لهم بسبب أعمالهم (من معاصي وذنوب وخطايا وانتشر الظلم في البر والبحر)، وبه قال السدي[1] وانتصر له الطاهر بن عاشور وقال: "وأعظم ما كسبته أيدي الناس من الأعمال السيئة الإشراك، وهو المقصود هنا، وإن كان الحكم عاما"، وعلى هذا الوجه يكون محمل الباء لقوله ﷻ: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: 30].

وذكر ابن عطية في تفسيره **احتمال قول ثان** ونقله عنه ابن حيان في تفسيره وهو: أن تتعلق الباء بـ: ﴿ظَهَرَ﴾ أي: كسبهم المعاصي في البر والبحر هو نفس الفساد الظاهر.

وقد جوز الطاهر بن عاشور في تفسيره **احتمال قول ثالث** وهو: "أن يكون المعنى أن الله ﷻ خلق العالم على نظام محكم ملائم صالح للناس، فأحدث الإنسان فيه أعمالا سيئة مفسدة، فكانت وشائج لأمثالها: وهل ينبت الخطي إلا وشيجه فأخذ الاختلال يتطرق إلى نظام العالم".

واستطرد قائلا: "وأيا ما كان الفساد من معهود [معين لدى المخاطب]

---

[1] نقله عن السدي ابن الجوزي في تفسيره: زاد المسير، والماوردي في تفسيره: النكت والعيون، وابن حيان في تفسيره: البحر المحيط، وانظر: تفسير المحرر الوجيز: لابن عاشور، وقارن بتفسير: جامع البيان: للطبري، وتفسير المحرر الوجيز: لابن عطية.

أو شامل [ليعم جميع اسم جنس الفساد]، فالمقصود أن حلوله بالناس بقدرة الله كما دل عليه قوله ﷻ: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾، وأن الله يقدر أسبابه تقديرا خاصا؛ ليجازي من يغضب عليهم على سوء أفعالهم. وهو المراد "بما كسبت أيديهم"؛ لأن إسناد الكسب إلى الأيدي جرى مجرى المثل في فعل الشر والسوء من الأعمال كلها، دون خصوص ما يعمل منها بالأيدي؛ لأن ما يكسبه الناس يكون بالجوارح الظاهرة كلها، وبالحواس الباطنة من العقائد الضالة والأدواء النفسية".

وبنحوه عند الشعراوي في تفسيره قال: "وما دام الحق ﷻ قال: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ فلا بد أن الفساد جاء من ناحيتهم، وبالله هل اشتكينا أزمة في الهواء مثلا؟ لكن نشتكي تلوث الهواء بما كسبت أيدي الناس، أما حين نذهب إلى الخلاء حيث لا يوجد الإنسان، نجد الهواء نقيا كما خلقه الله ... وقوله ﷻ: ﴿كَسَبَتْ﴾ عندنا: كسب واكتسب، الغالب أن تكون كسب للحسنة، واكتسب للسيئة؛ لأن الحسنة تأتي من المؤمن طبيعة دون تكلف أو افتعال، فدل عليها بالفعل المجرد (كسب). أما السيئة، فعلى خلاف الطبيعة، فتحتاج منك إلى تكلف وافتعال، فدل عليها بالفعل المزيد الدال على الافتعال (اكتسب)... [وأما في هذه الآية] فجعل السيئة كسبا لا اكتسابا. قالوا: لأن السيئة هنا صارت عادة عنده، وسهلت عليه، حتى صارت أمرا طبيعيا يفعله ولا يبالي كالذي يفعل الحسنة، وهذا النوع والعياذ بالله أحب

السيئة وعشقها، حتى أصبح يتباهى بها ولا يسترها ويتبجح بفعلها"[1].

وفي هذا السياق يرى الطبيب المصري محمد نبيل نافع في تفسيره أن: "الكسب يكون في الخير والاكتساب يكون في الشر ولكن من كثرة تكرار سلوكيات البشر مع الطبيعة (الصيد الجائر والاستهلاك المنفلت لموارد الطاقة والمعادن) فإنهم اعتقدوا أن التلوث الذي يقومون به هو شيء طبيعي وحق لهم"[2].

وقوله ﷻ: ﴿أَيْدِى﴾ "جمع يد والمراد ما كسبوا، وهذا من أساليب اللغة العربية أن يعبر باليد عن صاحب اليد، وليس المراد ما كسبت اليد فقط، ... فيكون المراد بالأيدي هنا الأنفس، لا اليد التي هي عضو من

---

[1] يحضرنا في هذا المقام نكتة للدكتور فاضل السامرائي في الفرق بين قوله ﷻ: ﴿بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ و﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ قال: "التقديم أن تعطي وتقدم مما عندك، أما الكسب فأن تجمع وتأخذ بنفسك". مقتبس عن برنامج (لمسات بيانية) على قناة الشارقة. هذا ويتعلق كلام الشعراوي والقول الذي قبله للطاهر ابن عاشور بفساد المُكَلَّفِ: –ويعرف في علم الكلام بأنه– "اخْتِيَارُهُ فِعْلَ مَا يُخَالِفُ شَرْعَ اللهِ تَعَالَى"، انظر: مادة (فساد) بمعجم الدوحة التاريخي للغة العربية، رابط الموقع الإلكتروني:
https://www.dohadictionary.org/dictionary/%D8%A7%D9%84%D9%81%D8%B3%D8%A7%D8%AF

[2] تفسير القرآن الكريم، رؤية تاريخية وجغرافية: لمحمد نبيل نافع: 408/6.

أعضاء البدن"[1].

وفي قوله ﷻ: ﴿ٱلنَّاسِ﴾: "يجري حكم تعريف الناس على نحو ما يجري في تعريف الفساد من معهود لدى المخاطبين أو شامل لكل فساد ظهر في الأرض برها وبحرها؛ فالمعهود هم (المشركون) وقد شاع في القرآن تغليب اسم الناس عليهم"[2].

❁ قوله ﷻ: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾

اختلف القراء في قراءة قوله: ﴿لِيُذِيقَهُم﴾؛ فقرأ ذلك الجمهور (عامة قراء الأمصار) ﴿لِيُذِيقَهُم﴾ بالياء، بمعنى: ليذيقهم الله بعض الذي عملوا، ومعاد الضمير قوله ﷻ: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُمۡ﴾ [الروم: 40]. وذكر أن أبا عبد الرحمن السلمي وعكرمة، وقتادة، وابن محيصن، وروح عن يعقوب، وقنبل عن ابن كثير: قرؤوا ذلك بالنون على وجه الخبر من الله عن نفسه بذلك. على التعظيم، أي: ﴿نُذِيقَهُم﴾ عقوبة بعض ما عملوا[3].

---

(1) تفسير القرآن الكريم (سورة الروم): للعثيمين، ص: 255، بتصرف بسيط.

(2) تفسير التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، بتصرف.

(3) انظر: تفسير جامع البيان: للطبري، وتفسير جامع أحكام القرآن: للقرطبي، وتفسير التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، وتفسير المحرر الوجيز: لابن عطية، وتفسير زاد المسير: لابن الجوزي.

ومعنى الذَّوق: "وجود الطعم بالفم، وأصله فيما يقلّ تناوله دون ما يكثر، فإنّ ما يكثر منه يقال له: الأكل، واختير في القرآن لفظ الذّوق في العذاب؛ لأنّ ذلك –وإن كان في التّعارف للقليل– فهو مستصلح للكثير، فخصّه بالذّكر ليعمّ الأمرين"[1].

واللام في قوله ﷻ: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ بمعنى كي وهي متعلقة بظهر أي ليصير حالهم إلى ذلك، وهي لام التعليل أو العاقبة؛ والتقدير عاقبهم ليذيقهم، ويكون محمل اللام على (الشرك) والمعنى: فأذقناهم بعض الذي عملوا، فجعلت لام العاقبة في موضع الفاء ...، أي: فأذقنا الذين أشركوا بعض ما استحقوه من العذاب لشركهم. وهو قول من أراد أن الفساد الذي ظهر هو الذنوب نفسها، لا أن الذنوب سبب الفساد الذي ظهر، أي: إن المراد بالفساد النقص والشر والآلام التي يحدثها الله في الأرض عند معاصي العباد، فكلما أحدثوا ذنبا أحدث لهم عقوبة[2].

"ومعنى قوله ﷻ: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ على تفسير الفساد بالجنس ظاهر وهو أن الله تعالى قد أفسد أسباب دنياهم

---

[1] مادة (ذوق) في: مفردات غريب القرآن: للراغب الأصفهاني.

[2] قارن: بالتبيان في إعراب القرآن: لأبي البقاء العبكري، وبتفسير التحرير والتنوير: للطاهر بن عاشور، والجواب الكافي لمن سأل عن الداء والدواء الشافي: لابن قيم الجوزية، ص: 74.

ومحقها وبال بعض أعمالهم في الدنيا قبل أن يعاقبهم بجميعها في الآخرة لعلهم يرجعون عما هم عليه[1].

وأما على تفسير الفساد بالمعاصي فاللام مجاز على معنى أن ظهور المعاصي بسببهم مما استوجبوا به أن يذيقهم الله تعالى وبال أعمالهم إرادة الرجوع فكأنهم إنما فسدوا وتسببوا لفشو المعاصي في الأرض لأجل ذلك"[2].

والعثيمين في تفسيره لقوله ﷻ: ﴿لِيُذِيقَهُم﴾ قال: "يعبر دائما بالإذاقة عن الإصابة؛ لأن الذوق هو أعلى أنواع الإدراك الحسي، فإن الإنسان يسمع بالشيء ثم يراه ثم يذوقه، أقول لك عندي تفاحة إدراكك للتفاحة الآن بالسماع ثم أخرجها وأريك إياها يكون بالرؤية، والرؤية أقوى من السماع ثم أعطيكها

---

(1) قارن بقول ابن عربي: "﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ أي: بما عملوا ﴿لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ وهو عين الجزاء وهو في الدنيا، فيوم الدنيا أيضا هو يوم الدين أي الجزاء، لما فيه من إقامة الحدود لذلك قال تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾ وهو عين الجزاء، وهو أحسن في حق العبد المذنب من جزاء الآخرة، لأن جزاء الدنيا مذكِّر وهو يوم عمل، والآخرة ليست كذلك، ولهذا قال في الدنيا ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ يعني إلى الله بالتوبة، فيوم الجزاء أيضا يوم الدنيا كما هو يوم الآخرة، وهو في الدنيا أنفع، فما ابتليت البرية وهي برية، إنما هو جزاء، ما هو ابتداء". (رحمة من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن الكريم من كلمات الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي: 355/3).

(2) تفسير الآلوسي.

فتأكلها فيكون هذا بالذوق وهذا أعلى ما يكون؛ لأني إذا قلت عندي تفاحة ولم ترها أنت يحتمل أن قولي هذا كذب، وإذا أريتك إياها ولكنك ما ذقتها يحتمل أن تكون نباتا آخر يشبه التفاحة ويحتمل أن تكون من التفاح الصناعي الذي يصنعونه من (البلاستيك) تشاهده كأنه تفاح حقيقي، فإذا ذقتها صارت حق اليقين؛ ولهذا يعبر الله ﷻ دائما عن الإصابة بالإذاقة لأنها أعلى أنواع الإدراك".

وأوضح الشعراوي في تفسيره أن "الإذاقة هنا عقوبة، لكنها عقوبة الإصلاح"، يقصد العقاب الإلهي للقرى والأمم الذي هو أثر طبيعي للجرائم.

و"كلمة ﴿بَعْضَ﴾ في الآية تشير إلى عذاب الدنيا، ولعذاب الآخرة أشق وأخزى"[1].

واختلف المفسرون في معنى البعضية في قوله ﷻ: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ على قولين:

القول الأول: أن المراد "الجزاء على بعض العمل السيء"، وتقديره: ليذيقهم عقاب "بعض" الذي عملوا من المعاصي، فحبس الله عنهم الغيث وأغلى سعرهم جزاء معجلا في الدنيا فالقحط جزاء، ونقصان البركة جزاء؛

[1] التفسير الكاشف، محمد جواد مغنية: 147/6.

لأن معظم الجزاء مؤجل في الآخرة. فصار عذاب الدنيا بعض الجزاء؛ لأن ذلك ليس تمام جزائهم، ليذيقهم عذاب بعض أعمالهم في الدنيا، قبل أن يعاقبهم بها جميعا في الآخرة. لأن الله ﷻ يقول: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ [فاطر: 45]، وقال ﷻ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى: 30]، وهذا حق لو أن الله ﷻ عاقب الناس بقدر ذنوبهم ما ترك عليها من دابة، كان كل الناس يموتون ولا يبقون ولكنه ﷻ يصيبهم ببعض ذنوبهم فقط. وبه قال النحاس والطبري والمهدوي[1] والقرطبي وابن حيان وابن الجوزي وابن قيم الجوزية والماوردي والشعراوي والعثيمين.

والقول الثاني: أن المراد: "بعض الجزاء على جميع العمل"، أي: إن بعض الذي عملوا أطلق على جزاء العمل؛ ولذلك فالبعضية تبعيض للجزاء، أي: إن ما يذيقهم من العذاب هو بعض ما يستحقونه. وفي هذا تهديد إن لم يقلعوا عن مساوئ أعمالهم كقوله ﷻ: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ [فاطر: 45]، ثم وراء ذلك عذاب الآخرة كما قال ﷻ: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: 127]. وبه قال الطاهر ابن عاشور ونفى الأول.

---

[1] انظر: التحصيل لفوائد كتاب التفصيل الجامع لعلوم التنزيل: لأبي العباس أحمد ابن عمار المهدوي (ت 440 هـ)، وزارة أوقاف دولة قطر، ط/1- 2014 م، 221/5.

ومن الإعجاز البياني في الآية ما ذكره الطاهر بن عاشور في تفسيره قائلا: "والإذاقة: استعارة مكنية، شبه ما يصيبهم من الآلام فيحسون بها بإصابة الطعام حاسة المطعم. ولما كان ما عملوه لا يصيبهم بعينه تعين أن بعض الذي عملوا أطلق على جزاء العمل ... والعدول عن أن يقال: بعض أعمالهم إلى بعض الذي عملوا؛ للإيماء إلى ما في الموصول من قوة التعريف، أي: أعمالهم المعروفة عندهم المتقرر صدورها منهم".

و"قد يقول قائل: لماذا عبر -ﷻ- عن العقوبة بالفعل؟

فنقول: عبر عن العقوبة بالفعل في قوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ لوجهين:

الوجه الأول: بيان سبب هذه العقوبة وأن سبب العقوبة هذا العمل.

الوجه الثاني: أن هذه العقوبة بقدر العمل تماما ولذلك عبر عنها بالعمل إشارة إلى أنها بقدره ليس فيها ظلم، وهذا كثير في القرآن، يعبر الله ﷻ عن العقوبة بالفعل من أجل هذين الوجهين"[1].

ويقول محمد جواد مغنية في تفسير قوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِى عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ "الفساد في الأرض نتيجة طبيعية للإعراض

[1] تفسير القرآن الكريم (سورة الروم): للعثيمين.

عن الله، وعدم الالتزام بأمره ونهيه"[1].

۞ قوله ﷻ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾

﴿لَعَلَّهُمْ﴾ قال ابن برجان في تفسيره: "الترجي هنا واقع في جنبة العباد"، وقال العثيمين: "و(لعل) هنا للتعليل، وكلما جاءت (لعل) في كلام الله فإنها للتعليل أو توقع الشيء إذا كان من المتوقع؛ أي: لأجل أن يرجعوا إلى الله ﷻ، وهذه من حكم الله، أن الله تعالى يبتلي العباد بالضراء لأجل أن يرجعوا إلى الله".

﴿يَرْجِعُونَ﴾ الرُّجُوعُ: العود إلى ما كان منه البدء، أو تقدير البدء مكانا كان أو فعلا، أو قولا، وبذاته كان رجوعه، أو بجزء من أجزائه، أو بفعل من أفعاله. فَالرُّجُوعُ: العود، والرَّجْعُ: الإعادة. والمعنى المحوري لمادة (رجع): تحول عن الاتجاه أو الحال إلى عكسه، وكل ما في القرآن من التركيب فهو بمعنى الرجوع العود، وكل ما في القرآن من (ترجع، ترجعون، يرجع، راجعون، مرجعكم، مرجعهم) فهي إلى الله ﷻ[2].

---

[1] التفسير الكاشف، محمد جواد مغنية: 147/6.

[2] قارن بمادة (رجع) في: مفردات غريب القرآن: للراغب الأصفهاني، والمعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم: لمحمد حسن حسن جبل، ص: 763-764، ومخطوطة الجمل: لحسن عز الدين الجمل: 175/2.

وفي المشار إليهم بلعلهم يرجعون قولان:

أحدهما: أنهم الذين أُذيقوا الجزاء. ثم في معنى رجوعهم ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: يرجعون [من التكذيب والكفر والشرك إلى الإيمان وعن المعصية] **إلى الطاعة،** قاله أبو العالية ويحيى بن سلام في تفسيره وبنحوه مقاتل بن سليمان في تفسيره.

والوجه الثاني: يرجعون إلى الحق، قاله إبراهيم، ورواه عنه الطبري بسنده في تفسيره.

والوجه الثالث: لعلهم يرجعون "لعلهم يتوبون"[1]. رواه الطبري في تفسيره بسنده عن الحسن بن أبي الحسن البصري. وسمى الله نفسه توبا لقبوله توبة من يرجع إليه.

وقد ذهب إلى الجمع بين هذه الأقوال الإمام الطبري فقال في تفسير قوله ﷻ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ يقول: "كي ينيبوا إلى الحق، ويرجعوا إلى التوبة، ويتركوا معاصي الله؛ وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل".

والقول الثاني: أنهم الذين يأتون بعدهم؛ فالمعنى: لعله يرجع من

---

[1] تفسير الجامع لأحكام القرآن: لقرطبي.

بعدهم، قاله أيضا الحسن بن أبي الحسن البصري من طريق قرة[1].

واختلفوا في الرجاء المستفاد من ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ على قولين:

أولهما للطاهر بن عاشور قال: "الرجوع مستعار للإقلاع عن المعاصي كأن الذي عصى ربه عبد أبق –هارب– عن سيده، أو دابة قد أبدت، ثم رجع.

والرجاء المستفاد من (لعل) يشير إلى أن: ما ظهر من فساد كاف لإقلاعهم عما اكتسبوه، وأن حالهم حال من يرجى رجوعه فإن هم لم يرجعوا فقد تبين تمردهم وعدم إجداء الموعظة فيهم، وهذا كقوله ﷻ: ﴿أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَّرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [التوبة: 126]".

قال ابن عطية: "وقد جعل الله هذه الأشياء [ارتفاع البركات ونزول رزايا وحدوث فتن وتغلب عدو كافر]؛ ليجازي بها على المعاصي فيذيق الناس عاقبة إذنابهم لعلهم يتوبون ويراجعون بصائرهم في طاعة الله ﷻ". وعن قتادة بن دعامة –من طريق سعيد– قال: "﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾: لعل

---

[1] انظر: تفسير زاد المسير: لابن الجوزي، وتفسير النكت والعيون: للماوردي.

راجعا أن يرجع، لعل تائبا أن يتوب، لعل مستعتبا أن يستعتب"[1].

وثانيهما للرازي قال: "وقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ أي: لعلهم يرجعون عما هم فيه؛ يعني كما يفعله المتوقع رجوعهم مع أن الله يعلم أن من أضله لا يرجع لكن الناس يظنون أنه لو فعل بهم شيء من ذلك لكان يوجد منهم الرجوع"[2].

***

[1] انظر: تفسير جامع البيان: للطبري، وموسوعة التفسير بالمأثور.

[2] التفسير الكبير: للرازي. (قلت): وهذا الرأي يناسب القول الثاني في المشار إليهم بلعلهم يرجعون المذكور آنفا في: ص: 170.

- **من درر التفسير في غير مضانه لآية الفساد في سورة الروم:**

في كتاب علم النفس، وتحت عنوان (الناس والفساد) كتب سميح عاطف الزين قائلا: **"**إن انصراف الناس إلى المادة، والاندفاع وراء متاع الحياة الدنيا دونما خوف من الله تعالى، ودونما وازع من ضمير أو وجدان، كل ذلك من شأنه أن يؤدي إلى ظهور الفساد في دنيا الأرض، برها وبحرها.. ويحذر القرآن الكريم الناس من ترك الفساد يستشري بسبب أفعالهم وتصرفاتهم، ومن ثم الاستدامة على الفسق والفجور، ويعظهم ويرشدهم، علَّ نفوسهم ترعوي فيقوى فيها المقت لهذا الفساد، ويدفعهم لمحاربته حتى تتطهر الأرض من الخبائث التي ملات ديارها وعمرانها، وأفسدت هواءها وماءها. يقول الله ﷻ: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ ٤١﴾ [سورة الروم]. من الواضح أن كل ما يحيط بالناس من أحوال، وأوضاع وأحداث، إنما يكون نتيجة لأعمالهم، فعندما تنحرف أعمال الناس عن مسارها الطبيعي، وتتجاوز الحدود المرسومة لها، فإنها تنقلب إلى فسادٍ: فساد في الأفكار والتصورات، وفساد في المفاهيم والعقائد، وفساد في الأعمال والتصرفات، وهذا ما يوقع الظلم والجور في دنيا الأرض، ويجعل الجائرين والظالمين والمفسدين يسيطرون على مقدرات الناس وأرزاقهم، ويتحكمون بتقرير مصائرهم، حتى تكون لهم الغلبة.. على ما نرى في واقع الحياة..

والفساد عندما يصبح ظاهرة متفشية مع ما يرافقه من الظلم والقهر والاستكبار، لا بدَّ من عقاب يقع عليه كله، أو على بعضه الذي يكون أشد إيذاء وضررا للناس. ويأتي هذا العقاب من الله تعالى علَّ الناس يتوبون إلى رشدهم فيتوب العاصي، ويقلع الظالم عن ظلمه، ويرتدع الفاسد عن فساده، والضال عن ضلاله..

وإن في العقاب موعظة للناس لعلهم يرجعون إلى أصالة نفوسهم فيعبدوا الله تعالى ويطيعوه ويستبدلوا السيئات بالعمل الصالح ويسيروا على النهج القويم في الحياة، أولئك الذين يبدل الله سيئاتهم حسنات. يقول الإمام علي عليه السلام في هذا المقام: «إن الله تعالى يبتلي عباده عند الأعمال السيئة بنقص الثمرات، وحبس البركات، وإغلاق خزائن الخيرات، ليتوب تائب، ويقلع مقلع، ويتذكَّرَ مدَّكر، ويزدَجِرَ مزدَجِرٌ. وقد جعل الله تعالى الاستغفار سببا لورود الرزق، ورحمة الخلق، فقال ﷻ: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ۝١٢﴾ [سورة نوح]. فرحم الله امرأ اسْتَقْبَلَ توبتَهُ، وَاسْتَقَالَ خطيئَتَهُ، وبادر منيته».

فالاستغفار يجلب الرزق ويشيع الرحمة الربانية على العباد. قد يخطئ هؤلاء العباد كثيرا، ويعصون ربهم طويلا، ولكنه -ﷻ- وهو الغفور الرحيم يلطف بهم. ولو شاء أن يحاسب الناس على ما يرتكبون من الإثم

والمعصية، لزلزل بهم الأرض في كل حين يعم فيه الفساد، ولذلك يحذرنا تعالى بقوله الجليل: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ﴾ [فاطر: 45]، لأن ما يرتكبه الناس من المفاسد التي هي مجلبة للمعاصي والشرور جميعا، إنما يؤدي إلى الشرك بالله الواحد الأحد، والكفر بالنعم التي يهبها للناس، ويتفضل بها على العباد فوق ما يشيع الشرك والكفر في الأرض من ظلم وطغيان وضلال وإضلال.. وهذا كله فظيع وشنيع. ولو أخذ الله تعالى الناس بما عملوا لأهلكهم كلهم، ولتجاوزهم هذا الهلاك إلى كل حي يدب على ظهر الأرض، ولأصبحت الحياة معدومة فيها تماما، حتى يشاء الله تعالى أن يبدل أمثال الناس تبديلا، خلقا وينشئ جديدا.

وقد يكون الفساد في البر معروفا.. وللتذكير فقط، فإنَّ من مظاهر هذا الفساد الحروب واحتلال بلاد الآخرين، والمنكرات على اختلافها من تجارة المخدرات وتعاطي المسكرات، وجعل المرأة سلعة إعلانية، أو عارضة عري في النوادي الليلية، فضلا عن الزنا، والمقامرة، والربا، وانتهاك البيئة البرية بكل ما فيها من ماء وشجر وحجرا..

أما الفسادُ في البحر، فإنَّ من أسوأ مظاهره هذه البارجات العسكرية العملاقة، وهذه الغواصات التي تحمل الرؤوس النووية، وهي تجوب البحار عرضا وطولا؛ وكذلك النفايات الفاسدة ولا سيما التي تحمل الإشعاعات القاتلة التي تأتي من الصناعات الثقيلة.. أما أكثرها فسادا فهي التجارب النووية

التي تجريها الدول (المتقدمة) في أعماق البحار، فكم تقتل من الأحياء المائية، وكم تقضي على أجناس من تلك الأحياء!

والقرآن الكريم عندما نزل لم يكن شيء من ذلك بعد قد ظهر، ولكنه قول الله الكريم الذي يعلم ومنذ خلق الإنسان، ما سوف يفعل هذا الإنسان، كما يشير إليه قول الملائكة، فيما ألهمهم ربهم، عندما قال لهم ﷻ: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 30]. وها هي أفعال الناس وأحوالهم، وبما تظهر عليه من الفساد في البر والبحر، تشهد على مصاديق القرآن الكريم، وتحذير ربّ العالمين من هذا الفساد، الذي يزداد، ويستفحل يوما بعد يوم إلى أن يؤدي في النهاية إلى القضاء على حياتهم، وحياة سائر الكائنات من حولهم، وذلك من أجل أن تتطهر الأرض من دنس البشر! أي تماما كما حصل في عهد نوح عندما غطى الطوفان الأرض وأخذ الظالمين أخذ عزيز مقتدر، بل وقضى على كل الكائنات الحية الأخرى، إلا ما حمله نوح معه في الفلك، ليكون فيه ما شاء الله من حفظ للنوع والجنس. وبذلك تطهرت الأرض من فساد الكفار والمشركين، وعادت إليها طهارتها، فدبت فيها الحياة من جديد، وكثرت الأنواع والأجناس الحية. وما زالت الأرض تنعم بالطهارة في قليل من بقاعها، بينما هي تميد وتترنح تحت أعباء الفساد وأثقاله في معظم أنحائها.

ودائما تغلب رحمة الله تعالى فلا يؤاخذنا على ما كسبت أيدينا لأن بشاعة ما نتعاطى به نحن البشر فيما بيننا، وما يرتد علينا من آثاره السيئة، إنما يرتد أيضا على الحيوان الأعجم، والزرع الأبكم، والحجر المدر، وكأن كل ما حولنا يقول لنا: إن مظالمنا وشرورنا نحن بني البشر، فيها أيضا ظلم وإرهاق للكائنات الأخرى، وهذا ما لا يرضاه الله تعالى، لأنه لو شاء سبحانه أن يحاسبنا في هذه الدنيا لاستحققنا العذاب المباشر، وذلك بالقضاء علينا، وعلى تلك الكائنات الأخرى لتخليصها من ظلمنا.. نعم إن ما يتعاطاه الناس فيما بينهم، وفي انقطاعهم عن ربهم، له آثاره المدمرة على الحياة بأسرها فيما لو يؤاخذ الله تعالى به الناس مؤاخذة سريعة. ولكن الله الغفور الحليم لا يعجل على الناسِ ﴿وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾ [فاطر: 45]، بحيث يؤخر كلَّ نفس لأجلها المكتوب لها في هذه الحياة، ويؤخر كل أمة أيضا لأجلها، لأنَّ لكل أمة، أجلا، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون. إذ يكون لكل أمة حقبة زمنية مقدرة في حسبان رب العالمين، تأتي بعدها الأجيال لتحل محل الأجيال التي انقضت، فتنشأ دول بأنماط للعيش، ومناهج غير التي سبقت! والتاريخ البشري شاهد على ما ذهب وهلك من القبائل والجماعات والدول، بتتابع العصور والأجيال، وتداول الأيام بين الناس.. ثم هنالك تأخير للناس جميعا إلى الأجل المحدد لانقضاء هذا العالم، ومجيء الساعة.. وإلى أن تحين الساعة تبقى الرحمة الربانية قائمة، والفرصة أمام الناس متاحة، لعلهم

يرعوون، وعن غيهم يرجعون، وبما يأمرهم به الدين الحنيف يعملون"[1].

* * *

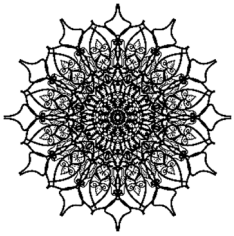

[1] علم النفس، سميح عاطف الزين [متهم بالتشيع والله أعلم]: 2/636-641.

- **من هداية الآية الكريمة:**

– سنة الفساد الخاصة بالكافرين: "إن سبب ظهور الفساد والخلل والاضطراب في البيئة كثرة فجور الناس، وكفرهم الذي ينتج عنه المغالاة في الإسراف وتبذير موارد الطبيعة؛ كالغابات والثروات السمكية والمعدنية ومصادر الطاقة بمختلف أنواعها، وتلويث الجو والمياه بالمواد الكيميائية التي تقذفها أرحام المصانع، فظهر الخلل والاضطراب في بيئة الحياة، وانتشرت الأوبئة والأمراض بين الناس والحيوانات، وعمّ وطمّ نتيجة لذلك الفساد في البر والبحر. وكأن الآية الكريمة تبيّن السبب الرئيس للخطر الكبير الذي يهدد الأحياء على وجه الأرض، وهو ما نطلق عليه الآن: تلوث البيئة. وهذا التلوث نتيجة حتمية لتلوث عقائد وأخلاق وسلوكيات أكثر الناس.

وإنه إنذار من الله تعالى للشاردين والتائهين عن منهجه، والمسرفين المفسدين المنصرفين عن شريعته، لعلهم يعودوا إلى طاعة الله ويطبقوا أحكام شريعته، فتنضبط تصرفاتهم وتعتدل نفوسهم، فتعود البيئة إلى طبيعتها وتوازنها الأصلي؛ لأن مصدر السنن والشريعة واحد، وهو الله جلّ علاه"[1].

و"إن السنن الإلهية في الأفراد والمجتمعات، ترتبط بكسب البشر

[1] السنن الاجتماعية: 1/ 489-490.

وعملهم ومواقفهم، ولذلك ما ذكر الله أمة دمرها أو عاقبها إلا ذكر بجانب العقوبة والتدمير جريمتها وذنبها،... قال ﷻ: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾ هذه العقوبة، وهي سنة إلهية، مرتبطة بالكسب البشري، بدليل قوله: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾ فمن الحقائق الكونية التي تقررها الآية لمفهوم الفساد في الأرض أنه لا يقع إلا بسبب من الناس، ﴿لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾ دلت الآية على أن الذنوب من جملة أسباب المصائب الدنيوية، وأن الله يجازي بالذنوب ويعاقب عليها في الدنيا بأنواع المصائب، من الألم والحرمان، والشقاء والقلة، والأذى والعلة؛ فدل قوله: ﴿لِيُذِيقَهُم﴾ على أن الضرر الحاصل من هذا الفساد نزل منزلة العقوبة.

ومن ثم فإن هذه الآية الكريمة من آيات الإعجاز العلمي والغيبي؛ لأنها تنبأت بظهور الفساد الذي يصيب البر والبحر، كما حددت المسؤول عن هذا الفساد، وهو الإنسان؛ لأنه لم يكن لأحد من الخلق إمكانية تصور الواقع الحالي للأرض من تلوث بيئي والقضاء على كثير من مظاهر الحياة النباتية والحيوانية والإنسانية بسبب الحضارة الصناعية من قبل ألف وأربعمائة من السنين مما يعد اكتشافا علميا وإعجازا قرآنيا. وهذا لا يتعارض مع التفسير القديم للآية؛ فكل سواء المفسرون القدامى أم المفسرون المعاصرون قد فسر الآية بمعطيات عصره.

فمن إعجاز القرآن الكريم أن تصف آية واحدة ما أصاب البيئة اليوم

من تلوث وفساد، وللمرة الأولى نجد أن الإنسان قد أسهم في تغيير مناخ العالم، وانتشار فيروس كورونا (كوفيد 19)، وأن فساد البشر هو الذي أدى لذلك. يقول المولى ﷻ في كتابه الكريم: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ حقا لقد ظهر الفساد ومن مظاهر هذا الفساد الذي نخر في أجواء بلاد العالم "كورونا" التي ما زالت تحوم في عالمنا وتفتك في البشر وتتكاثر يوما بعد يوم. إذا كان كورونا من صنع البشر في ظل ما قيل، فهو تفسير منطقي للآية القرآنية؛ لأنه حينما أفسد البشر كانت النتيجة، وباء منتشرا لا يستطيع أحد إيقافه، وهو ما يؤكده قوله ﷻ: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ والحالة التي يعيشها الناس من خوف ورعب وإصابات ووفيات بالآلاف، تلك تفسير منطقي لقوله ﷻ: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾ فإذا كان الأمر كذلك، فإن الله –رحمة بالناس– لم يتركهم لأنفسهم كيف يتصرفون، وإنما وضع لهم الحل سريعا، لكن كثيرا منا لم ينتبه لبقية الآية، وهو قوله ﷻ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾.

وهكذا تضع الآية علم البيئة في الميزان، واصفة مشكلات البيئة وصفا معجزا حيث يتضح من التدبر في الآية علاقة المصائب بالمعاصي، أو علاقة الكساد بالكسب؟ أو علاقة الشر بالبشر، من خلال أربعة محاور رئيسة وهي:

أولا: مشكلة ظهور الفساد في البر والبحر: وهو ما يعبر عنه اليوم

بالتلوث البيئي، ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾.

ثانيا: سبب ظهور الفساد الموجب لوقوع تلوث البيئة اليوم: هو الإنسان بمعصيته لله وترك طاعته ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِي ٱلنَّاسِ﴾.

ثالثا: حكمة الله من ظهور الفساد ووجوده: وهي انعكاس آثار الفساد سلبا على الناس وما يسببه من أذى لهم فيذوقوا سوء أفعالهم يوميا: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ﴾.

رابعا: الغاية من ظهور الفساد: هو علاج ذلك التلوث البيئي وطريقة الإصلاح أن يقلع الناس عن الفساد ويعودون إلى ربهم: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾"[1].

* * *

[1] قارن بمقال: نفي الإعجاز العلمي عن قوله ﷻ: ﴿ظَهَرَ ٱلۡفَسَادُ فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ﴾، نقلا عن: (نقض النظريات الكونية، لأبي نصر عبد الله الإمام)، موقع بيان الإسلام، ومقال: آيات الإنسان والبيئة في القرآن، لحسني حمدان الدسوقي حمامة، موقع الألوكة.

- **من فوائد الآية الكريمة[1]:**

الفائدة الأولى: أن الفساد سببه أعمال بني آدم لقوله ﷻ: ﴿بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ﴾ ويدل لهذا أيضا قوله ﷻ: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: 96]، فالإيمان والتقوى واكتسب الخير، سبب لصلاح البر والبحر، والعباد والبلاد.

الفائدة الثانية: إثبات العلل والأسباب، وأن الأمور مقرونة بأسبابها، وقد جعل الله لكل شيء سببا؛ وأن أفعال الله ﷻ لا بد لها من علة تؤخذ من قوله ﷻ: ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ ولا شك أن أفعال الله تعالى وأحكامه كلها معللة ولحكمة؛ لأن من أسمائه الحكيم.

الفائدة الثالثة: إثبات الاختيار والكسب للإنسان، وأنه غير مجبر على فعله، وبطلان مذهب الجبرية، فالجبرية يقولون إن الإنسان مجبر على عمله لا يفعل باختياره ولا يضاف الفعل إليه إلا على سبيل المجاز، فيقال صام، زكَّى مجازا لا حقيقة، الآية الكريمة ترد عليهم من وجهين:

---

[1] انظر: تفسير القرآن الكريم (سورة الروم): للعثيمين، بتصرف بسيط، وقارن بعون الرحمن في تفسير القرآن: لسليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم.

الوجه الأول: قوله ﷻ: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِى ٱلنَّاسِ﴾ فأضاف الكسب إلى أيدي الناس.

الوجه الثاني: أن الله تعالى عاقبهم على هذا الفعل ولو كانوا مجبرين عليه لكانت عقوبتهم ظلما لهم، إذ كيف يعاقبون على ما ليس باختيارهم؟

ففيها رد من وجهين؛ وجه لفظي وهو إضافة الكسب إلى أيديهم، ووجه معنوي وهو أنه يلزم من عقوبتهم على ذلك لو كانوا مجبرين أن يكون الله تعالى ظالما لهم، والله تعالى ليس بظلام للعبيد وكذلك أيضا يؤخذ من قوله ﷻ: ﴿عَمِلُواْ﴾ حيث أضاف العمل إليهم.

الفائدتان الرابعة والخامسة: أن الناس لا يعاقبون إلا بأسبابهم لقوله ﷻ: ﴿بِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِى ٱلنَّاسِ﴾ فيتفرع عن ذلك أن من أراد أن ترفع عنه العقوبة فليتب إلى الله؛ فإن التوبة من أسباب رفع العقوبة وجلب المثوبة.

الفائدة السادسة: أن الجزاء من جنس العمل وبقدر العمل؛ لقوله ﷻ: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾؛ أي جزاءه.

الفائدة السابعة: نعمة الله تعالى في تخفيف الابتلاء على العباد، وبيان سعة رحمته، وأنها سبقت غضبه؛ لقوله ﷻ: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ﴾، أي: بعض ما عملوه من المعاصي، لا كله. ولو أن الغضب كان

بقدر الرحمة لكان الله يذيقنا كل الذي عملنا، ولو كان غالبا للرحمة لكان يذيقنا أكثر مما عملنا، فالأمور ثلاثة: إذاقة البعض أو المثل أو الأكثر، والمثل أو الأكثر ممتنع، وإنما يذيق الله تعالى البعض لأنه ثبت في الحديث الصحيح: «أن الله تعالى كتب كتابا عنده فوق العرش: إن رحمتي سبقت غضبى» [أخرجه البخاري في صحيحه]، ولولا هذا لكان الله تعالى يؤاخذ الناس بما عملوا.

الفائدة الثامنة: حكمة الله تعالى البالغة في مؤاخذة العباد ببعض آثار ذنوبهم ومعاصيهم، بما يصيبهم من المصائب في أنفسهم وأموالهم وحروثهم، وغير ذلك؛ ليرجعوا ويتوبوا؛ لقوله تعالى: ﴿لِيُذِيقَهُم بَعۡضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾.

الفائدة التاسعة: أن الابتلاء بالعقوبات قد يكون سببا للرجوع إلى الله، لمن وفقه الله، لقوله ﷻ: ﴿لَعَلَّهُمۡ يَرۡجِعُونَ﴾.

* * *

تم بحمد الله تفسير الآية من سورة الروم.

الخاتمة

قال قاهر العالم المغولي جنكيز خان: "أنا عقاب الله، وإذا لم ترتكب خطايا عظيمة لم يكن ليبعث الله عقابا مثلي عليك"، فإن ما نعيشه اليوم من غلاء في الأسعار وخسائر في الأنفس والأموال؛ نتيجة الأمراض (كرونا/ فيروس كوفيد-19) والحروب (حرب روسيا مع أوكرانيا)، وتضخم بسبب الركود الاقتصادي، وتصحر وجفاف وفيضانات بسبب الاحتباس الحراري الذي يغير المناخ، لهو عقاب على تفشي الفساد من تعاملات ربوية، وشذوذ جنسي، وإلحاد، ومعصية للخالق، وتعطيل لأحكام الشريعة[1]، وللخروج من تيه هذا المستنقع الآسن لا بد من الرجوع إلى طاعة الله بتجديد الإيمان علميا، وتقويته عمليا بالأعمال الصالحة، وإعلاء كلمة الحق، ولزوم الصبر على ذلك؛ فالمعاصي سبب من أسباب الفساد في البر والبحر، والطاعات سبب من أسباب صلاحهما، و﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا

[1] "إن الإعراض عن اتباعه ﷺ، واستبدال غيره به ﷺ، من أشد الأسباب الجالبة للفساد واختلال الأمور، والضلال في الدنيا، والخسران والعذاب في الآخرة. وما نزل بالمسلمين فساد، ولا خلل في أي جانب من جوانب حياتهم، ولا تسلط عليهم أعداؤهم، فساموهم سوء العذاب، وأخذوا بعض ما في أيديهم، ولا غلت الأسعار، وانتشرت الأمراض والأوبئة، وظهرت العلل التي لم تكن معروفة من قبل، ما حصل شيء من كل ذلك إلا بسبب إعراض الأمة عن اتباع هدي محمد ﷺ". (موسوعة الآداب الإسلامية: لعبد العزيز ابن فتحي بن السيد ندا، دار طيبة للنشر والتوزيع، ص: 49، بتصرف بسيط).

بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ [الرعد: 11]؛ فالفساد سبب للعقاب؛ فإذا مس الإنسان ضر فليتضرع لله تائبا، وليكثر من الأعمال الصالحة فهي التجارة الرابحة.

ومن الأساليب القرآنية في محاربة الفساد عدم سلوك مسالك أهله، ومن صفات المفسدين في القرآن سفك الدماء: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة: 30].

وقال الجاحظ (البيان والتبين: 89/1): "إن الفساد أسرع إلى الناس، وأشد التحاما بالطبائع"؛ لذلك نهى القرآن عن الفساد وأمر باجتنابه؛ فإن الله لا يحب المفسدين الذين يسعون في الأرض؛ ليعثوا فسادا، فأولئك هم الخاسرون، يسفكون الدماء، ويهلكون الحرث والنسل، ويحاربون الله ورسوله، ويهددون النظام الكوني بإشاعة الشذوذ الجنسي وضياع النظام الأسري وانقراض الجنس البشري؛ فلينظر الإنسان كيف كانت عاقبة المفسدين ولا يتبع سبيلهم، لعنهم الله ولهم سوء الدار، فلا تهاون مع الفساد ولا تعاون مع المفسدين، ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٣٣﴾ [المائدة: 33].

ونختم هذا التفسير الجامع بقول الناظم[1]:

قدْ ظهَرَ الفسادُ في البَراري *** بالقحْطِ والوَخَمِ[2]، والبِحارِ

بالغيْضِ[3] والمُلوحَةِ المُرَكَّباتْ *** على العِبادِ بِارْتَكابِ السَّيئِاتْ

كيْ يفْزَعوا إلى المتابِ؛ فالمتابْ *** هو الدواءُ لِلذي كان يُصابْ

لكنَّما الطَّغامُ[4] لا يَفهمُ ذا *** فلمْ يَتُبْ لا حَبَّذا لا حَبَّذا

هذا، ولا يحيط بعلمه وكلماته إلا هو تعالى.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك.

***

تم بحمد الله

---

(1) مراقي الأواه إلى تدبر كتاب الله، للعلامة أحمد بن أحمذي الحسني (ت 1387 هـ)، دراسة وتحقيق وبيان للنصف الثاني: محمد أحمد ولد محمد (مبارك)، رسالة دكتوراة، جامعة القرويين، كلية أصول الدين تطوان، 2008 م، ص: 164.

(2) الوخم: –في صفة الأرض– التي لا ينجع كلؤها.

(3) الغيض: القلة والنقص.

(4) الطغام: أوغاد الناس.

قائمة المصادر والمراجع[1]

أ- الكتب:

1. **أحكام القرآن**، لمحمد بن العربي المعافري المالكي (ت 543 هـ)، راجع أصوله وخرج أحاديثة وعلق عليه: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط/3- 2003 م، 4 ج.
2. **الأساس في التفسير**، لسعيد حوى (ت 1409 هـ)، دار السلام – القاهرة، ط/6- 1424 هـ، 11 م.
3. **الأصول الثلاثة وشروط الصلاة والقواعد الأربعة**، لمحمد بن عبد الوهاب، طبع بشركة العبيكان للطباعة والنشر، الرياض، [د. ت]، 19 ص.
4. **أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن**، لمحمد الأمين الشنقيطي (ت 1393 هـ)، دار الفكر، بيروت- لبنان، ط/1995 م، 9 ج.
5. **إعراب القرآن**، لأبي جعفر النحاس (ت 338 هـ)، وضع حواشيه وعلق عليه: عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية – بيروت، ط/1- 1421 هـ، 200 ص.
6. **إعراب القرآن**، لقوام السنة إسماعيل التيمي الأصبهاني (ت 535 هـ)، تقديم: د. فائزة بنت عمر المؤيد، طبعة عذراء، ط/1- 1995 م، 566 ص.
7. **إغاثة اللهفان من مصائد الشيطان**، لابن قيم الجوزية، تحقيق طه عبد الرءوف سعد، مكتبة الصفا، القاهرة – مصر، ط/1- 2002 م، 576 ص.
8. **أفراد كلمات القرآن العزيز**، لابن فارس، حققه: أد. حاتم صالح الضامن، دار

[1] لقد رجعنا إلى عشرات التفاسير القديمة والحديثة، منها المشهورة ومنها المغمورة، وفيها التي فسرت فقط سورة العصر، وبما أن جلها استنساخ عن بعضها البعض فقد اكتفينا بذكر المصادر الأصلية التي نقلنا عنها حتى لا يكون ثبت المراجع بحجم متن التفسير.

البشائر، ط/1- 2002 م.
9. **الأمثل في تفسير كتاب الله المنزل:** مع تهذيب جديد، لآية الله الشيخ ناصر مكارم الشيرازي، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت-لبنان، ط/1- 2013 م، 30 ج/15 م.
10. **أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تفسير:** ناصر الدين **البيضاوي** (ت 685 هـ)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي-بيروت، ط/1- 1418 هـ، 5 ج.
11. **البحر المحيط في التفسير**، لأبي حيان الأندلسي (ت 745 هـ)، تحقيق صدقي محمد جميل، دار الفكر - بيروت، ط/1- 1420 هـ، 10 م.
12. **البداية والنهاية**، لابن كثير، تحقيق: عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، ط/1- 1997 م، سنة النشر: 2003م، 21ج.
13. **البرهان في متشابه القرآن** (المسمى أسرار التكرار في القرآن)، لتاج القراء محمود ابن حمزة بن نصر الكرماني (ت 505 هـ)، تحقيق: عبد القادر أحمد عطا، دار الكتب العلمية، بيروت-لبنان، ط/1- 1986 م، 208 ص.
14. **البيان والتبين**، للجاحظ (ت 255 هـ)، دار ومكتبة الهلال- بيروت، ط/ 1423 هـ، 3 ج.
15. **تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار**، لعبد الرحمن بن حسن الجبرتي (ت 1237 هـ)، دار الجيل - بيروت، [د. ت]، 3 ج.
16. **تأويلات أهل السنة**، تفسير الماتريدي، محمد بن محمد بن محمود أبو منصور الماتريدي (ت 333 هـ)، المحقق: د. مجدي باسلوم، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط/1- 2005 م، 10 م.
17. **التبيان في أقسام القرآن**، لابن قيم الجوزية (ت 751 هـ)، صححه وعلق عليه: طه

يوسف شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط: 1972 م، 279 ص.
18. **تحرير** المعنى السديد **وتنوير** العقل الجديد من **تفسير** الكتاب المجيد، لمحمد **الطاهر ابن عاشور** (ت 1393 هـ)، الدار التونسية للنشر – تونس، ط/1– 1984هـ، 30ج.
19. **التسهيل لعلوم التنزيل**، تفسير لمحمد بن أحمد بن جزي الكلبي الغرناطي الأندلسي، تحقيق رضا فرج الهمامي، المكتبة العصرية – بيروت، ط/1– 2003 م، 4 م.
20. **التفسير البياني للقرآن الكريم**، لعائشة محمد علي عبد الرحمن المعروفة ببنت الشاطئ (ت 1419 هـ)، دار المعارف – القاهرة، ط/7، [د. ت]، 2 ج.
21. **التفسير الحديث** [مرتب حسب ترتيب النزول]، دروزة محمد عزت، دار إحياء الكتب العربية – القاهرة، ط: 1383 هـ.
22. **تفسير القرآن العظيم**، لأبي الفداء الحافظ بن كثير الدمشقي (ت 774 هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، ط/1– 2004 م، 4 م.
23. **تفسير القرآن الكريم: جزء عم**، لمحمد بن صالح العثيمين، سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (1)، إعداد وتخريج: فهد بن ناصر السليمان، دار الثريا للنشر – الرياض، ط/2 – 2002 م، 356 ص.
24. **تفسير القرآن الكريم: رؤية تاريخية وجغرافية**، لمحمد نبيل محمد فتحي نافع، طبعة عذراء، ط/2015 م، 8 ج.
25. **تفسير القرآن الكريم: سورة الروم**، لمحمد بن صالح العثيمين، سلسلة مؤلفات فضيلة الشيخ (138)، مؤسسة الشيخ محمد بن صالح العثيمين الخيرية – القصيم، ط/1 – 1436 هـ، 358 ص.
26. **تفسير القرآن بالقرآن**، لطه جابر العلواني، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرندن – فرجينيا، ط/2– 2021 م، 968 ص.
27. **التفسير الكاشف**، محمد جواد مغنية (الشيعي ت 1400 هـ)، دار الأنوار، بيروت–

لبنان، ط/4 [د.ت]، 7 ج.

28. **تفسير المراغي**، لأحمد المراغي (ت 1371 هـ)، شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي وأولاده بمصر، ط/1- 1946 م، 30 ج.

29. **تفسير جزء عم**، لمحمد متولي الشعراوي، دار الراية للنشر والتوزيع، ط 2008 م، 680.

30. **تفسير سورة العصر المتضمنة هداية سبيل الرشاد في أقصر الآماد:** للعلامة المفسر الشافعي ولي الدين الملوي المعروف بابن المنفلوطي خطيب مَلّوِي (ت 774 هـ)، تحقيق د. طه محمد فارس، كتاب رقمي، الناشر: شبكة الألوكة – قسم الكتب، 57 ص.

31. **تفسير سورة العصر**، للدكتور أبي مجاهد عبد العزيز بن عبد الفتاح القارئ، مكتبة الدار، المدينة المنورة، 1414 هـ، 70 ص.

32. **تفسير نظم القرآن وتأويل الفرقان بالفرقان**، عبد الحميد الفراهي، الدائرة الحميدية، ط/1- 2008 م، 230 ص.

33. **تنبيه الأفهام إلى تدبر الكتاب الحكيم وتعرف الآيات والنبأ العظيم**، لعبد السلام ابن برجان اللخمي الإشبيلي الأندلسي المالكي (ت 536 هـ)، تحقيق وتعليق وتخريج أحمد فريد المزيدي، ذار الكتب العلمية- بيروت، ط/1- 2013 م، 5 ج.

34. **التيسير العجيب في تفسير الغريب**، لناصر الدين أبي العباس أحمد بن محمد المالكي الإسكندراني المعروف بابن المنير (ت 683 هـ/ 1284 م). تحقيق سليمان ملا إبراهيم أوغلو، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، ط/1- 1994 م، 285 ص.

35. **جامع البيان في تأويل القرآن**، تفسير ابن جرير الطبري (ت 310 هـ)، بتحقيق أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط/1- 2000 م، 24 ج.

36. **الجامع لأحكام القرآن**، تفسير القرطبي (ت 671 هـ)، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط/2– 1964 م، 10 م.
37. **جمال القراء وكمال الإقراء**، علي بن محمد بن عبد الصمد الهمداني المصري الشافعي، أبو الحسن، علم الدين السخاوي (ت 643 هـ)، دراسة وتحقيق: عبد الحق عبد الدايم سيف القاضي، مؤسسة الكتب الثقافية – بيروت، ط/1– 1999م، 2ج.
38. **الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي**، لابن قيم الجوزية (ت 751 هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، ط/1– 1987 م، 296 ص.
39. **حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن**، تفسير لمحمد الأمين الهرري الشافعي، راجعه د. هاشم محمد علي، دار طوق النجات، بيروت – لبنان، ط/1– 2001 م، 33 ج.
40. **حسن السلوك الحافظ دولة الملوك:** محمد بن محمد بن عبد الكريم بن رضوان ابن عبد العزيز البعلي شمس الدين بن الموصلي، (ت 774 هـ)، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن – الرياض، [د. ت]، 198 ص.
41. **الخواطر السوانح في أسرار الفواتح**، ابن أبي الأصبع المصري (ت 654 هـ)، تقديم وتحقيق د: حنفي محمد شرف، 1960 م، 144 ص.
42. خواطر **تفسير** محمد متولي **الشعراوي** (ت 1418 هـ)، مطبعة أخبار اليوم، 1997 م، 20 ج.
43. **درج الدرر في تفسير الآي والسور**، لأبي بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن ابن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار (ت 471 هـ)، تحقيق: القسم الأول (طلعت صلاح الفرحان)، القسم الثاني (محمد أديب شكور أمرير)، دار الفكر، عمان – الأردن، ط/1– 2009 م، 2 ج.
44. **دلالة أسماء سور القرآن الكريم من منظور حضاري**، د. محمد خليل جيجك،

مؤسسة الرسالة، ط/1- 2001 م: 332 ص.

45. **رحمة من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن الكريم** من كلمات الشيخ الأكبر محيي الدين بن العربي، جمع وتأليف: محمود محمود الغراب، طبعة عذراء [د.ت].

46. **روح البيان، لإسماعيل حقي** بن مصطفى الإستانبولي الحنفي الخلوتي، المولى أبو الفداء (ت 1127 هـ)، دار الفكر – بيروت، [د. ت]، 10 ج.

47. **روح القرآن الكريم تفسير جزء العنكبوت** وفيه سورة الروم، لعفيف عبد الفتاح طبَّاره، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، ط/ 1- 1990، 156 ص.

48. **روح القرآن الكريم تفسير جزء عم** وفيه سورة العصر، لعفيف عبد الفتاح طبَّاره، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، ط/ 11- 2001، 205 ص.

49. **روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني**، تفسير شهاب الدين محمود الألوسي (ت 1270 هـ)، تحقيق: علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية – بيروت، ط/1- 1415 هـ، 16 ج.

50. **رياض الصالحين من حديث سيد المرسلين**، للنووي (ت 676 هـ)، حققه وضبط نصه وخرج أحاديثه: علي الحلبي الأثري، دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، ط/1- 1421 هـ، 680 ص.

51. **زاد المسير في علم التفسير**، لأبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي (ت 597 هـ)، دار احياء التراث العربي، بيروت – لبنان، ط/1- 2002 م، 1432 ص.

52. **السنن الاجتماعية في القرآن الكريم وعملها في الأمم والدول** دراسة تأصيلية تطبيقية على الأمم المسلمة والكافرة، أد. محمد أمحزون، دار طيبة- المملكة العربية السعودية، ط/1- 2011 م، 3 ج.

53. **سورة العصر: دراسة تحليلية موضوعية**، لأبي عبيدة عبد الرحمن بن محمد

الميتمي، دار الفرقان للطباعة والنشر– اليمن، ط/1– 2021 م، 52 ص.
54. **العقد الفريد**، لابن عبد ربه (ت 328 هـ)، دار الكتب العلمية – بيروت، ط/1– 1404 هـ، 8 ج.
55. **علم النفس** معرفة النفس الإنسانية في الكتاب والسنة، سميح عاطف الزين، دار الكتاب المصري بالقاهرة، ودار الكتاب اللبناني ببيروت، ط/2– 2008 م، 2 ج.
56. **عون الرحمن في تفسير القرآن** وبيان ما فيه من الهدايات والفوائد والأحكام، للدكتور سليمان بن إبراهيم بن عبد الله اللاحم أستاذ في قسم القرآن وعلومه بكلية الشريعة والدراسات الإسلامية – جامعة القصيم، دار ابن الجوزي، ط/1– 1441 هـ، 25 ج.
57. **فتح القدير**، تفسير لمحمد بن علي بن محمد بن عبد الله **الشوكاني** اليمني (ت 1250 هـ)، دار ابن كثير – دار الكلم الطيب، دمشق – بيروت ط/1– 1414 هـ.
58. **في ظلال القرآن**، تفسير سيد قطب، دار الشروق – القاهرة، ط/32– 2003م، 6م.
59. **القسم في القرآن الكريم (إعجاز القرآن)**، د. حسين نصار، مكتبة الثقافة الدينية، ط/1– 2001 م، 146 ص.
60. **القسم في القرآن الكريم تركيبا ودلالة**، عبد الله علي عبد الله الهتاري، إشراف د: سمير شريف ستيتية، رسالة ماجستير (تخصص لغة عربية لغة ونحو)، جامعة اليرموك كلية الآداب قسم اللغة العربية، 1999 م. 124 ص.
61. **القسم في اللغة وفي القرآن**، محمد المختار السلامي مفتي الجمهورية التونسية سابقا، دار الغرب الإسلامي، ط/1– 1999 م، 460 ص.
62. **قيمة الزمن عند المسلمين**، لعبد الفتاح أبو غدة، دار القلم– الكويت، ط/4– 2002 م، 81 ص.
63. **لسان العرب**: لابن منظور الأنصاري (ت 711 هـ)، الحواشي: لليازجي وجماعة

من اللغويين، دار صادر، بيروت، ط/3- 1414 هـ، 15 ج.

64. **مجالس النور** في تدبر القرآن الكريم وتفسيره (بمنهج عملي وتربوي جديد)، للشيخ د. محمد عياش الكبيسي، راجعه وحقق مسائله وخرج أحاديثه: د. وليد الحسيني، د. إبراهيم الأنصاري، د. محمد المصلح، دار نشر جامعة قطر، [د.ت]، 4 ج.

65. **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**، لأبي محمد عبد الحق بن عطية الأندلسي (ت 541 هـ)، دار ابن حزم، بيروت – لبنان، ط/1- 2002 م، 2019 ص.

66. **مخطوطة الجمل:** معجم وتفسير لغوي لكلمات القرآن، لحسن عز الدين بن حسين ابن عبد الفتاح أحمد الجمل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، ط/1- 2003- 2008 م، 5 ج.

67. **معارج التفكر ودقائق التدبر** [مرتب حسب ترتيب النزول]، تفسير لعبد الرحمن حسن حبنكة، دار القلم – دمشق، ط/1- 2006 م، 15 ج.

68. **معاني القرآن الكريم:** للإمام أبي جعفر النحاس (ت 338 هـ)، تحقيق الشيخ محمد علي الصابوني، جامعة أم القرى، ط/1- 1989 م، 6 ج.

69. **المعجم الاشتقاقي المؤصل لألفاظ القرآن الكريم:** مؤصل ببيان العلاقات بين ألفاظ القرآن الكريم بأصواتها وبين معانيها، أ. ذ: محمد حسن حسن جبل/ مكتبة الآداب – القاهرة، ط/1- 2010 م، 4 م.

70. **معجم مفردات ألفاظ القرآن**، للراغب الأصفهاني، تحقيق نديم مرعشلي، دار الفكر، بيروت – لبنان، [د. ت]، 727 ص.

71. **معجم مقاييس اللغة**، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين (ت 395 هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ط/ 1979 م، 6 ج.

72. **مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)**، لفخر الدين الرازي (ت 606 هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط/3- 1420 هـ، 32 ج.

73. **مفتاح دار السعادة ومنشور ولاية أهل العلم والإرادة**، لابن قيم الجوزية (ت 751 هـ)، حققه هاني الحاج، المكتبة التوفيقية، القاهرة – مصر، [د. ت]، 1 م.
74. **مفردات القرآن** (نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية)، لعبد الحميد الفراهي الهندي (ت 1349 هـ)، تحقيق: محمد أجمل أيوب الإصلاحي، دار الغرب الإسلامي، ط/1– 2002 م، 480 ص.
75. **موسوعة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم**، لمجموعة من الباحثين، مركز تفسير للدراسات القرآنية، الرياض، ط/1– 2019، 36 ج.
76. **موسوعة التفسير بالمأثور**، إعداد مركز الدراسات والمعلومات القرآنية بمعهد الإمام الشاطبي بجدة، بإشراف د. مساعد الطيار، دار ابن حزم، بيروت – لبنان، ط/1– 2017 م، 24 م.
77. **الميزان في تفسير القرآن**، للعلامة السيد محمد حسين الطباطبائي (ت 1981 م)، صححه وأشرف على طباعته: فضيلة الشيخ حسين الأعلمي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت – لبنان، ط/1– 1997 م، 22 ج.
78. **نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر**، لجمال الدين أبي الفرج عبد الرحمن ابن علي بن محمد الجوزي (ت 597 هـ)، تحقيق: محمد عبد الكريم كاظم الراضي، مؤسسة الرسالة – لبنان/ بيروت، ط/1– 1984 م.
79. **النشر لفوائد سورة العصر**، لمحمد بن علي الشوكاني، تحقيق وتعليق: أبي عبد الرحمن صالح بن محمد العيزري، دار ابن حزم، ط/1–2008 م، 118 ص.
80. **النكت والعيون: تفسير الماوردي**، لأبي الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي (ت 450 هـ)، تحقيق: السيد بن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت– لبنان، [د. ت]، 6 ج.
81. **واحة التفسير**، لأحمد الطويل، الدار العالمية للنشر والتجليد، ط/1– 2016 م، 15

م.

82. **الوقت في حياة المسلم**، ليوسف القرضاوي، مكتبة وهبة- القاهرة، ط/7- 2009 م، 82 ص.

ب- المجلات:

1. **أسلوب القسم في سورة (العصر) وإعجازه البياني في النظم القرآني**[1]، أ.د: أمل محمد عبد الفراج علي راشد، مجلة الدراسات الإنسانية والأدبية، مجلة علمية محكمة تصدر عن كلية الآداب جامعة كفر الشيخ، ع: 27، يونيو 2022 م، ص: 1060-1185.
2. **التفسير الصوتي والصواتي للنص القرآني سورة العصر نموذجا**، د. حمادي الموقت، (الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين، بني ملال – خنيفرة، المغرب)، مجلة: مدارات في اللّغة والأدب، الصادرة عن مركز مدارات للدراسات والأبحاث، تبسة-الجزائر، مج: 1، ع: 2، س: 2019 م، ص: 78-109.
3. **ذخيرة القصر في تفسير سورة العصر**، للإمام محيي الدين الكافِيَجي الحنفي (ت 879 هـ)، دراسة وتحقيق: محمد السيد عبد العظيم النشاوي، المجلة العلمية لكلية القرآن الكريم للقراءات وعلومها بطنطا، ع: 3، ص: 506-609.
4. **سورة العصر دراسة في المناسبات والسمات**، أ.د: محمد أمين أبو شهبة، حولية كلية اللغة العربية بنين بجرجا جامعة الأزهر، ع: 18، 2014 م، ج. 7. ص: 6328-6430.
5. **في رحاب تفسير سورة العصر دراسة تحليلية**، أ.د: محمد عبد النبي علي إبراهيم الحفناوي، الدراية مجلة كلية الدراسات الإسلامية والعربية للبنين – جامعة الأزهر – فرع دسوق – كفر الشيخ، ط/ 2020 م، مج: 19، ع: 19، ج: 4، ص: 854-

[1] بحث قيم لا غنى عنه لطالب تفسير سورة العصر، أفدت منه الكثير وما تركت فأكثر.

.783

6. **القسم بالزمان في آيات القرآن (دراسة لغوية وحقيقة كونية):** أ.د: محمد البع، قسم اللغة العربية، كلية الآداب، الجامعة الإسلامية، غزة، فلسطين، مجلة جامعة النجاح للأبحاث، (العلوم الإنسانية)، مج: 19، ع: 3، س: 2005 م، 36 ص/ 889-924.

ج- المواقع الإلكترونية:

1. **مجلس مذاكرة تفسير سورة العصر**، موقع معهد آفاق التيسير للتعليم عن بعد رابط صفحة الموقع: http://afaqattaiseer.net/vb/showthread.php?t=43699
2. **تفسير بياني لسورة العصر**، لأبي عبد المعز، مقال منشور في: 2013/05/13-20/09/2014، بملتقى أهل التفسير، رابط الموقع:**https://mtafsir.net/forum**

* * *

فهرس المحتويات

منهج المفسر 3
المقدمة:..... 5
تمهيد 8
تفسير سورة العصر 9
(توطئة)..... 20
(ملحق تفسير سورة العصر) 126
تفسير آية الفساد في سورة الروم.....132
الخاتمة.....186
قائمة المصادر والمراجع 189

عنوان الكتاب: **فساد البلاد وخسر العباد في العصر والروم**
العنوان الفرعي: **تفسير سورة العصر وآية من سورة الروم**
المؤلف: **كريم امصنصف**
الناشر الورقي: **العلم للنشر – ألمانيا.**
www.al-ilm-publishing.com
تاريخ النشر: **الطبعة الأولى 2022 م.**
ردمك: ISBN **978-613-6-31467-9**
الموزع الورقي:
www.morebooks.de
الموزع الرقمي: موقع نيل وفرات
www.neelwafurat.com

COPYRIGHT PROTECTED